ڤيلا كفر عبده

الطبعة الأولى

١٤٤١ هـ - ٢٠٢٠م

تنبيه

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزال مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي نحو أو بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو بالتسجيل أو خلاف ذلك إلا بموافقة المؤلف والناشر على هذا كتابة ومقدمًا.

رقم الإيداع

٢٠١٩/٢٢٣٥٥

بطاقة فهرسة

سميح، فتحي

قيلا كفر عبده: رواية/ سميح فتحي ط١ - القاهرة: دار غراب للنشر والتوزيع: ٢٠١٩

٢٦٤ صفحة؛ ١٤ x ٢٠ سم

تدمك:٦-١٩٤-٧٨٦-٩٧٧-٩٧٨

١- القصص العربية

أ- العنوان

٨١٣

دار غراب للنشر والتوزيع

٨ عمارات الواحة - قطعة ١٠

مدينة نصر ـ القاهرة

ت: ٠١١١٠٣٧١٦٤٠

info@ghorabpublishing.com

تصميم الغلاف

رائد مجدي

التنسيق الداخلي

أحمد البسيوني

ڤيلا كفر عبده

رواية

سميح فتحي

سأجعل ملك الموت يشعر بالدهشة حين ينزل بقضاء الله على الأرض وهو يفتِّش عني ولا يجدني؛ وسيضطر إلى الارتفاع لمسافات شاهقةٍ جدًّا لكي ينجز التكليف؛ من حقي أن أموت مختلفًا؛ بالأساس لا أشبه الناس في شيء.

عن قصة حقيقية

ليست العدالة بما تراه بأم عينيك في وضحِ النهار

وإنما بما تستطيع أن تثبته للعميان.

من أمام بوابة مستشفى المعمورة للأمراض النفسية والعقلية بالإسكندرية في صباح يوم الأربعاء قبل ارتفاع الشمس في منتصف السماء..

قالت وهي تنتفض وقد اختلط العرق بالدموع على وجهها الذي يشبه القمر إذا اكتمل ومرت عليه الغيوم:

يا أبتاه عُد بي إلى بيتنا أنا لست مثل هؤلاء المجانين الذين أراهم من بين قضبان البوابة، أنا في كامل قواي النفسية والعقلية، أعلم أنني ثقيلة عليك يا أبتاه، لكنني أخشى أن يعتقدوا مثلما تعتقد؛ ويحبسونني؛ فتحرمني من خوفك أنت وأمي عليَّ حين يشتد النوم.

كفِّي عن الصراخ يا ابنتي الجميلة، يا ابنتي ما جئت بكِ لأنكِ ثقيلة، وربِّ عينيكِ الدامعتين لو كلفني الأمر أن ألِفَّ بكِ الدنيا وأنا أحملك على كتفيّ سأفعل لكن تماسكي أرجوكِ.

هدأَتْ قليلًا وقالت:

إذًا هيا نرجع يا أبي؛ ألست أنت القائل «إذا فرض عليك الطريق الممل فقم بتقسيمه إلى مجموعة من المسافات الممتعة»؟

أجاب أبوها وعيناه ممتلئتان بالقهر الشديد:

كنت أود أن نعود بك لأمك ونخبرها أن الطبيب قال إنك بخير؛ ستموت ممزقةً من الحزنِ عليكِ وهي تقف بجانبك لا حول لها ولا قوة.

قالت وكأنها وجدت مَخرجًا:

عندما نعود وندخل البيت سأدخل شقتي مباشرةً؛ من حقي كزوجة أن أرى زوجي يحمل عني، وعلى الأقل أخفف عن أمي قليلًا؛ ثم إنه ليس على الأب حماية ابنته في وجود رجل في حياتها؛ ليس لأي سبب غير أن هذا هو موسم الأنوثة.

ابتسم أبوها ابتسامةً مفعمةً بالدموع وقال وقد عاد يحتضنها:

لا، لن أتركِكِ يا قطعة من روحي؛ **في الوقت الذي تحتاجين فيه إلى رجل برتبة محارب يجب أن يتم تسريح ذلك الذي خلع حذاءه استعدادًا للهرب؛ أشعر أنه لا يقف بجانبك كما يجب.**

تماسكَت وابتلعت ريقها وقالت:

يا أبتاه لقد طال الأمر، ثق تمامًا أن الأمر يتعلق بأنني أريد أن أشعر أنه بجانبي أو أن مزيدًا من الناس حولي، العالم ليس أنت وأمي فقط؛ العالم صديقاتي أيضًا وأصدقائي؛ العالم جيراني، العالم كل مَن له علاقة بالإنسان.

رجع الأب بالسيارة، وفي الطريق كانت ضوضاء الحزن تخيم على صمت الحوار، دخلت ساندي شقّتها، شهق زوجها حماد فور دخولها شوقًا لها؛ عانقها ثم أراد أن يدخل بها غرفة النوم؛ لكنها تسمَّرت مكانها وقالت بهدوء غاضب:

مع احترامي الشديد للحيوانات، لا تنظر إليّ كل مرة كأن هناك ثأرٌ بين عينيك وجسدي؛ أريد أن أستأذنكَ حين يحل المساء بعد أن يغلق أبي باب شقته في الذهاب إلى ڤيلا جدي في كفر عبده دون أن تخبر أبي؛ أريد عزلة ولو ليلة واحدة، أكون فيها معي فقط.

قال حماد بعد عودة عينيه من تأمل عودها الفارع وهو يبتلع ريقه:

لكن هذه الڤيلا شبه مهجورة تقريبًا منذ وفاة جدك وأبوك يعرضها للإيجار.

المكان هناك هادئ وأحتاج لهذا الجو أرجوك.

لماذا تصرخين يا ساندي؛ لاحظي أنك حامل في الشهر السابع!!.

شرد حماد قليلًا وتنهد وهو يفكر:

كمدمني الهيروين حين يلعقون قاع فناجين القهوة عن آخرها ولا يجدون ملاذهم، أنا ذلك البن الذي لن يرضيك أبدًا.

كانت تتكلم لكنه لم ينتبه لها وظل شاردًا:

أحدهم سرق عاهرةً من عصر الفجار ثم ألقى بها أمامي كما ولدتها أمها فوقفت على حظي السيء في منتهى الخجل تعلن توبتها.

قاطعت شروده بغضب:

أول مرة أطلب منك طلب يا حماد؛ قف بجانبي؛ افهمني؛ **ليس من المفترض أن تتشابه أحلامنا لنكون معًا إنما على الأقل لا تكتفي بالوقوف لتصافحني عند آخر الحلم كالغرباء.**

وافق بسهولة مع أول دمعة ترقرقت في بريق عينيها لكنه حاول أن يقترب فأفلتت جسدها من قبضتِه وتحججت بدخول الحمام وقالت وهي تعزي نفسها التي لم ترغب فيه يومًا:

الناس يموتون عندما يريد الله أن يموتوا لكن لا يعيشون جميعهم إذا أراد الله أن يكونوا على قيد الحياة.

ومع نزول قرص الشمس فتحت ساندي باب الشقة وهي تنظر بحذر إلى باب الشقة المقابلة حيث تسكن عائلتها وتسللت بهدوء إلى الخارج قبل أن يلاحظ خروجها أبوها أو أمها من العمارة الخاصة بهما في شارع ميخائيل عبد القادر بحي رشدي، أوقفت تاكسي بعد مرور أكثر من واحد دون أن يتوقف أو حتى يلتفت السائق.

أشارت للسائق الذي وقف وأقلَّها أن يدخل كفر عبده من شارع عبد القادر رجب، ثم نزلت آخره أمام باب الڤيلا، فتحت الباب، وفور دخولها مباشرة سمعت صوت جرس الهاتف الأرضي.

آلو، السلام عليكم، من المتصل؟!.

كيف حالك يا ساندي؟.

عفوًا!!؛ من المتحدثة بهذا الصوت الغليظ؟!.

أنا ملك ابنة خالتك.

أهلًا وسهلًا بكِ يا ملك، لقد عاد الصوت رقيقًا يتناسب وأنك أنثى، ويتصادف أنني أسمع صوتك أول مرة وأنتِ متلبسةٌ بالطعام؛ لا بد أنك كنت تأكلين يا ابنة خالتي ولا تضيعين وقتًا.

أتخلص من الاكتئاب بكثرة الأكل؛ المهم أنني علمْت من خالتي أنكِ طلبتِ من زوجك الذهاب لقيلا كَفر عبده فقلت أستأذنك في المبيت معك.

فعلها زوجي حماد وأخبر أمي؛ لا بد أنها قلقة عليّ؛ واتصلت بك وأرسلتك حتى لا أبيت وحدي؛ مع أنني قلت لها مرارًا أن كفر عبده منتهى الأمان.

لا ليس الأمر كذلك وإنما لم أتعرف عليكِ من قبل وكلما أذهب عندكم لا أجدك؛ إما في سفر أو في بيت زوجك.

تعلمين مشاغل الحياة يا ملك؛ على أية حال أهلًا بك يا ابنة خالتي، أنا بانتظارك، ألا تعرفين العنوان؟.

بلى؛ اطمئني، وصفَته لي خالتي، أليست هي آخر قيلا بعد منطقة الأشجار في آخر شارع عبد القادر رجب باشا؟.

بلى، إنها ڤيلا جدي رحمة الله عليه، كان يحب العزلة كثيرًا والبعد عن صخب شوارع الإسكندرية، بالمناسبة نسيت أن أسألكِ كيف كانت امتحانات الثانوية العامة الغريبة معك؟.

أرى أن تنتظري حتى أخبرك كل شيء؛ عندي كثير من الحكايات.

عندك حق، والله جعلتيني أشعر بالسعادة يا ملك رغم أنني لا أنكر أنني هاربة من كل الناس ومن بيتنا في رشدي إلا أنني الآن أشعر بالشغف للتعرف على ابنة خالتي وحكاياتها وأظن أن من بينها الحب وما أدراك ما الحب في فترة المراهقة؛ وخاصةً في الأرياف حيث الحقول والأجران وتحت الأشجار وفي عشش الفراخ.

إذًا عليك بانتظاري لأن عندي الكثير وأعدي لنا غَداءً.

سأطلب من المطعم وجبتين سريعتين.

لا أحب الوجبات السريعة يا ساندي ولا أكل المطاعم هذا.

بالله عليك؛ لسنا في قريتكم ولا في محافظة البحيرة يا ملك، الڤيلا على ما أظن لم يدخلها أحد منذ فترة وأظن أن المطبخ ليس به شيء أصلًا.

ادخلي المطبخ ستجدين به كل ما تريدين، وبالمناسبة لا أحب اللحم بتوابل كثيرة.

لا بد أنك تمزحين، على أية حال رغم أنني حبلى إلا أنني سأعد لك وجبةً شهية، سلام يا ملك يا ابنة خالتي.

نظرت ساندي من زجاج المنزل بينما لاتزال ملك على التليفون...

ساندي؟.

نعم يا ملك.

من الممكن أسألك سؤال وأطلب منك طلب؟.

تفضلي بالطبع.

بم يدعونك على سبيل الدلع.

المقربين يقولون لي صاصا.

وهل من الممكن يا صاصا أن...

ومن قال لك أنك من المقربين؟!، ثم ما هو طلبك أيتها الفلاحة الشقية؟.

ألّا تخبري أحدًا أنني عندك إلا حينما يأتي الليل؛ لأنني لو أخبرتهم لقالوا لي عودي إلى القرية ولكنني أريد أن أتحجج بالمواصلات وبأنني وصلت إليك متأخرة؛ حينها فقط لن يكون أمامهم غير الأمر الواقع؛ كما تعلمين لا يمكنني العودة إلى القرية بعد نزول الظلام والطريق الموحش.

والله ولا حتى في كفر عبده لأن المكان هنا شديد الهدوء وكثيف الأشجار وغير آمن نتيجة لبعد الثيلات عن بعضها والهدوء الشديد.

إذًا سلام يا صاصا.

سلام يا ملك.

وضعت ساندي سماعة التليفون، وأسرعت رغم أنها كانت شديدة الكسل إلى المطبخ وأخرجت قطعة لحم مجمدة، وكانت قطعة كبيرة ثم الخضروات اللازمة للطهو ولكنها شعرت بوخز في بطنها فآثرت السلامة واتصلت بالمطعم المجاور؛ فأحضر لها الغداء لحمًا رائعًا، وتركت كل شيء في المطبخ على حاله، وقالت لنفسها كذبة بيضاء إذا قلت لها أنني التي قمت بتجهيز الغداء؛ وأخفَت العلبة الورقيه المكتوب عليها اسم المطعم والكيس، وبينما كانت تجهز ملعقتين وسكينتين سمعت جرس الباب فهرولت تفتح وهي تقول:

أنتِ ملك ابنة خالتي؟!

نعم ولا بد أنك ساندي صاصا.

تبادلا العِناق، وكان مفتاح الڤيلا في طبلة الباب من الداخل؛ فأغلقتْه ملك بالمفتاح وهي تبتسم وتقول:

لا أريد أحدًا يفسد عليّ انفرادي بكِ؛ لا تعلمي كم أنا شغوفة بلقائك والحديث معكِ.

شعرت ساندي بالفرح من شدة شغف ابنة خالتها؛ فتناولت المفتاح من طبلة الباب وقالت:

أصلًا لا أحد يعرف أننا هنا سوى أهلي، وهم لن يأتوا الليلة على الأقل، اطمئني نحن وحدنا.

تمام يا ساندي.

تفضلي الغداء جاهز واللحم المتبَّل ينادي عليك.

دائمًا اللحم ينادي عليَّ يا ساندي.

ماذا؟!، لا بد أنك تعشقين اللحم أيتها المفجوعة!!، دمك شربات وتدخلين القلب من أول طلّة.

نعم، هيا بنا، ولكن كيف عرفتِ لون دمي؟.

كُفي عن المزح يا ملك.

جلسا يتناولان الغداء المتأخر وكان الليل قد بدأ يمارس سيطرته على أجواء المكان خارج القيلا وبدأ صوت الريح يمارس جنونه بفروع الأشجار.

لم تعد ساندي تسمع من صوت ضيفتها سوى صوت التهامها للغداء لكنها بينما كانت تبتسم لطريقة أكلِها انتابتها الدهشة فجأة نتيجة لنظرة ملك لقطعة اللحم؛ فقالت ساندي:

ألم يعجبك اللحم؟.

لماذا لم تطبخي كما قلت لك؟!.

وكيف عرفت أنني لم أطبخ؟.

لأن هذا ليس اللحم الذي في الثلاجة!.

يبدو أن لك خبرة كبيرة بالطبخ وتمييز أكل البيت، أنتم بنات الأرياف بارعون في الطبخ أصلًا.

عادت ملك لالتهام الطعام واللحم وكانت ساندي قد أحضرت الشاي بناءً على طلب ملك ثم جلسا يتبادلان أطراف الحديث حين سألت ملك ساندي عن برجها ثم تحت ضغط ساندي شرعت ملك في أن تبدأ الحكي عن الحب في الأرياف عندهم.

وبالفعل بدأت تحكي عن قفزها من نافذة خلف دارهم في منتصف الليل للقاء فارس أحلامها تحت ظلام الشجر في الحقول الملاصقة لبيتهم، وكانت ساندي شديدة الانتباه لما تسمعه من مغامرة ملك التي أخذت بطبقين إلى المطبخ وتبِعتها ساندي وهما مندمجان.

وأثار دهشة ساندي نظرة ملك لكتلة اللحم التي كان قد نزف منها بعض الدم لا سيما وأن ساندي كانت قد أخرجتها من الفريزر ونسيتها على رخامة المطبخ.

راحت ملك بفوضوية شديدة توزع نظراتها هنا وهناك في الدور الأول العلوي التي تقف فيه حتى رأت سلم يتجه للأسفل يبدو مظلمًا؛ نزلت درجتين فوجدت بابًا في نهايته؛ فقالت لساندي:

هذا البدروم يبدو رائعًا لكنه مغلق بقفل كبير.

ما الروعة يا ملك في مكان مظلمٍ هكذا تحت الأرض؟!!.

أقصد رائع للخزين وكراكيب الڤيلا وكل ما لا تحتاجين إليه.

هناك شيء اسمه قمامة يا ملك نلقي بها خارج البيت أما الخزين فهو أمر لا نفعله هنا نحن نشتري من كارفور وفتح الله ماركت حاجتنا أسبوع بأسبوع.

ما هذا الباب يا ساندي الذي هناك آخر السلم الصاعد؟.

هذا هو الباب المؤدي إلى الدور الثاني المغلق تمامًا برمز سريٍّ لأن به بعض مقتنيات المرحوم جدي الأثرية الثمينة، وهو قد فعل ذلك لاحتمال أن يقتحم الڤيلا أحد اللصوص ونحن غائبون.

عندك حق؛ النوافذ كلها من الزجاج؛ يمكن لأي لص كسْرها واقتحامها بسهولة.

ضحكت ساندي ضحكة مدوية ثم قالت وهي تتهكم:

هذا الزجاج أقوى سبعين مرة من جدران المباني ثم فوق هذا لو فتحتِ زجاج النافذة ستجدينها مسيَّجة بسياج من شُبُك الحديد ليقطع على أي لص كل الطرق لاقتحام المكان هذا علاوة على الكاميرات المثبتة في كل زاوية.

وأين الشاشات؟.

إنها بالطابق العلوي المغلق بالأقفال السرية كما قلت لك، وأصلًا لا يعرف هذه الأرقام إلا أبي، ثم كفاكِ أسئلة أيتها الفضولية العجيبة ودعينا نغادر المطبخ.

ومما زاد دهشة ساندي أكثر أنها وجدت آثار قضمتين أو ربما ثلاث بحجم فم وآثار أنياب في قطعة اللحم التي تبدو كجزء من ذبيحة، وبالطبع نظرت إلى فم ملك فلم تجد شيئًا في فمها، وليس من المعقول أنها قد ابتلعتها دون مضغ؛ لكنها سرعان ما التفتت إلى حديث ملك المشوِّق عن ذلك الشاب الذي كانت تواعده.

عادت ملك للحكي حتى إذا اقتربت من نهاية قصتها المثيرة والغريبة على بنت من الأرياف التي لا تزال في الثانوية العامة وسط استغراب ساندي مما حل بهؤلاء البسطاء من انحلال أخلاقي، لكن بدا على ملامح ملك شبح النوم؛ فتوجهت نحو زر الإضاءة فأطفأته بعد أن استأذنت ساندي أنها لا تنام إلا في نور خافِت؛ فقالت ساندي:

نطفئ كل الأنوار إلا نور الأباجورا يا ملك، اتركيه لو سمحتِ.

لا يا صاصا سنكتفي بنور عامود الإضاءة الخافت القادم من زجاج النوافذ.

على الأقل يا ملك اتركي إضاءة الأباجورا؛ لا يمكننا أن..

قاطعتها ملك بإصرار:

لا أحب أي إضاءة بالقرب مني حين أنام.

شعرَت ساندي بإصرارها الشديد على الأمر فرضخت لطلبها؛ وكان الأمر منطقيًّا بعض الشيء كما بدا لساندي؛ الفلاحون والصعايدة عامةً

يتعاملون بنقاء؛ والذي في قلوبهم يخرج على ألسنتهم دون فلتر أو تجميل، فمن الممكن أن يلقوا في وجهك بكلام مدبب، لكنه يبقى مقبولًا وخفيفًا على القلب.

نامت ملك فجأة على السرير الذي لا يسع إلا لفرد واحد؛ الأمر الذي جعل ساندي تضطر للنوم على الأريكة ثم ضحكت قائلة:

يا ملك أنت في كفر عبده وليس في أرياف محافظة البحيرة وسط الناموس، ما الذي يدفعك لتغطية جسمك ووجهك هكذا باللحاف مثل الموتى؟!.

لم ترد ملك فاستأنفت ساندي:

ألا تخافين من كتمان أنفاسك وأنت تلتفِّين بهذه الطريقة؟!.

لم ترد ملك، ظنت ساندي أنها ربما تكون متعبة من المواصلات وموسم سهر الامتحانات المرهق، وبينما كانت ساندي تنهض لترفع عن وجه ملك اللحاف الأبيض قررت أن تتراجع وتتركها تنام كيفما تشاء.

لكن منظر نوم ملك كان مخيفًا بعض الشيء إذ يشبه منظر الميت المكفَّن، وخاصة مع أصوات الليل خارج القيلا والخفوت الشديد للإضاءة.

قررت ساندي أن تدير وجهها وتنام ملتحفة بالكوفرتا الخفيفة المتبقية في الغرفة.

وكانت ملك قد قامت بتشغيل هاتف ساندي على موسيقى صاخبة وألقَت به بعيدًا أثناء تناول الغداء حتى نفد الشحن وأُغلق تلقائيًّا؛ فحاولت

ساندي أن تنهض وتمشي على أطراف أصابعها للبحث عن الشاحن لكنها لم تجده وكأنه اختفى!.

بدأ الخوف يسري تدريجيًّا في قلب ساندي.

ارتفع معدّل الخوف أكثر مع شبح الهدوء الذي بدا فيه صوت الرياح عاليًا.

لم تجرؤ على استعمال الأرضي لأنه كان ملاصقًا للسرير التي تنام عليه ملك كالجثة.

بالطبع جاء بخاطرها أن تترك الغرفة لكنها شعرت بالتجمد والشلل وقدر كبير من الحماية الوهمية المتوفرة من جرّاء الاختباء تحت الكوفيرتا.

وعبثًا حاولت ساندي النوم لكن الأمر لم يفلح.

بدأت بعض التفاصيل الغريبة التي وقعت منذ جاءت ملك تقفز أمام عينيها مثل طريقة طرقها العنيف على الباب واللحم المقضوم وغيرها من التفاصيل الغريبة، ثم قررت أن تنادي بصوت خفيض:

ملك، يا ملك!!.

لم ترد، فلم تعد تسمع سوى أصوات أنفاس نفسها، حتى أنه من عادة النائم أن يبدو تحت الغطاء أنه يتنفس إلا أن هذه النائمة تبدو بالفعل ساكنة تمامًا.

كان الوقت يشبه السلحفاة الكسيحة..

صامتًا.

حَب عيون ساندي بدأ يتجول هنا وهناك في الأركان.

فجأة انتفضَت ساندي واقفة باستقامة دفعة واحدة وهي ترتعد كمشلول أوقفوه بعد رن جرس التليفون الأرضي كأنه سقوط صاعقة على طفلة كانت شاردة.

كان صوت التليفون كفيلًا بصناعة صخب يكفي مع صوت سكون الليل لإضافة خوف فوق الخوف ولكن ربما خشيت من أن يزعج الجرس هذه النائمة بهذا الشكل المريب فتوجهت بسرعة ورفعت السماعة وحملت عدة التليفون وشدت السلك وأخذته على الأريكة التي كانت نائمةً عليها وقالت:

- آلو، من المتصل؟.

- صباح الخير يا ساندي، اتصلْتُ في وقت متأخر لأني أعلم أن أهل اسكندرية ليلهم نهار ونهارهم ليل؛ يعتادون على السهر.

صباح النور!!.

- اتصلْت بخالتي لأعتذر عن عدم مجيئي اليوم؛ فأخبرَتني أن آتي إليكِ غدًا وتكون فرصة أننا وحدنا ونتعرف بشكل عميق.

من أنتِ؟!.

– بالطبع لم تتعرفي على صوتي؛ أمي قالت لي «لابد أن تتعرفي على ابنة خالتكِ؛ فأمها لم تنجب غيرها وأنا لم أنجب غيرك».

– ماذا تقصدين بقولك خالتي؛ أمي ليست لها إلا أختًا واحدة.

نعم، أمي صابرين خالتكِ يا ساندي.

– مَن أنتِ؟!!.

– أنا ملك ابنة خالتك يا ساندي!!، عندك حق واندهاشك في محله فنحن لم....

– تمزحين معي يا ملك؛ أليس كذلك؟.

أي مزاح؟!.

تتكلمين من هاتفك المحمول تحت اللحاف، ولهذا تغطين وجهك، وبالمناسبة هذا مخيف ولم أكن أحب هذا المزح الزائد عن الحد؛ تعرفين أنني حامل!!.

عم تتكلمين يا ساندي وأي مزاح تقصدين؟!، ومن تلك التي تكلمك من تحت اللحاف؟!، يا ساندي أنا أجلس على كنبة الأنتريه وأكلمك من التليفون الأرضي.

قلت لكِ كفي عن المزح، جسمي يرتجف من هذا السخف وأنا أنظر إلى شكل نومتك الغريبة وال...

ما بكِ يا ساندي؟، ألديك إظهار رقم؟.

نعم.

انظري ستجدي الرقم بمفتاح محافظة البحيرة (٠٤٥) وهذا دليل على أنني في بيتنا وفي قريتي وأنني...

سقط التليفون من قبضة ساندي في فوضويةٍ عندما نظرَت إلى الإظهار ووجدت بالفعل الاتصال وارد من ملك الحقيقية، أو ربما ليست هي، لا تعلم.

ترددت في عدة قرارات بين الصراخ أو الهرب أو الصمت، تعثّرت؛ فتدحرج التليفون من المنضدة المقابلة حتى وصل قرب سرير النائمة وسقطَت خلفه السماعة من يدها المرتعشة بعد أن قرأت الرقم من شاشة الإظهار؛ واتسعت حدقتا عينيها وتراجعت إلى أقصى الغرفة وهي تنظر باتجاه هذه النائمة.

وقفَت ساندي تتقيَّأ وتضع يدًا على بطنها المنتفخة بالحَمل واليد الأخرى على فمها لتكتم الصوت على القيء.

سيطر الرعب على المكان من بشاعة الصدمة.

وأخذت تتذكر من جديد كل المشاهد التي دارات بينهما منذ سمعت صوتَها الغليظ في الهاتف أول مرة.

وابتلَّ قميص ساندي من فرط العرق الناتج عن الخوف، وجلست تحدق في منظر النائمة المتمددة.

ظلت ساندي تحدق في منظر النائمة، ظنًّا منها أنها لو التفتت طرفة عين ستهجم عليها.

وبقيت على هذا الحال بين الارتعاد والعرق وتجمد عظامها مدة لا تقل عن ساعة كاملة لكنها مرت عليها كأنها سبعون ألف سنة من الرعب، ثم جاء في خاطرها لو أنها تتجه نحو باب الغرفة لتخرج إلى الصالة وتبحث عن مَخرج، أو تتجه نحو الباب الرئيسي وتنطلق في الشارع لتصرخ أو تجري باتجاه الطريق الرئيسي حيث السيارات التي لا تزال تمر بين الحين والآخر.

وبالفعل بدأت تنقل قدميها المتجمدتين بيديها المرتعشتين خطوةً خطوة ببطءٍ شديد في المسافة بين آخر الغرفة وبابها وهي تكتم أنفاسها في مدة لا تقل عن عشر دقائق.

وضعت يدها المرتعدة على مقبض الباب؛ ضغطت بهدوء عنيف لكن عبثًا أصدرت عملية انفتاح الباب صوتًا بدا لها أنه صوت تحرك قطار قديم باتجاه طفل غفا على القضبان من الفرط الهدوء المرعب.

تركت باب غرفة النائمة مفتوحًا، وانفكَّ الشلل الذي سيطر على أقدامها؛ كأنهما أصبحا جناحين؛ فانطلقت بهما انطلاق غزال من نمر جائع في الوقت الذي نسيت فيه حَملها؛ لكن حدثت الفاجعة!.

كانت قد أغلقَت ذلك الباب الرئيسي بالمفتاح، والمفاتيح لا تزال بغرفة النائمة المكفَّنة، يبدو أنها على المنضدة التي كان عليها عدة التليفون الأرضي، ماذا تفعل؟!.

قررت أن تنظر مرة أخرى من وسط صالة القيلا الرئيسية من باب الغرفة المفتوح لترى هل هناك جديد أم أن الكفن لا يزال نائمًا.

وقفت في زاوية تسمح لها برؤية سرير النائمة، فإذا بها تجد كل شيءٍ على حالة كما بدا لها من بعيد، فأخذت تخطو لكن هذه المرة هي مستعدة للعودة هاربة إذا حدث جديد أو تحركت النائمة أية حركة.

وصلت إلى باب الغرفة ولم تدخل وتسمَّرت قدماها في مكانها رافضة الحركة باتجاه الداخل لكنها راحت تتفحص كل مكان في الغرفة بحبَّتي عينيها بحثًا عن المفاتيح التي لم تجدها أساسًا على المنضدة كما توقعت، وراحت تسأل نفسها:

ترى أين تكون المفاتيح؟! إنها الطريقة الوحيدة لفتح البوابة الضخمة لا سيما وأن كل النوافذ بسياج شبكي من الحديد.

تراجعت فجأةً بظهرها حتى وقعت بعد أن تذكرت اختفاء الشاحن، ربما تكون المفاتيح قد لاقت نفس المصير؟!.

حاولت التماسك لتتذكر أين وضعت المفاتيح بعد أن أغلقت باب القيلا فور دخول ملك التي كانت مصرة على إغلاقه.

تذكرت بعض صور مشهد دخول ملك ثم مشهد نزعها للمفاتيح لكنها لم تتذكر أين وضعتهم؛ ذلك أن هذه تفاصيل صغيرة تحدث على هامش التحركات العادية التي يصعب استرجاع الذاكرة لها، لا سيما مع وجبة الرعب الدسمة التي تتعرض لها، قالت ساندي:

لا بد أنها قامت بإخفاء كل شيء، ربما، الله أعلم، سترك يا رب.

مضى الوقت بطيئًا.

رعشة وعرق شديد.

قامت مرة أخرى لتلقي نظرةً أكثر اتساعًا في الغرفة، هناك احتمال أن تكون المفاتيح قد وقعت حينما وقع التليفون الأرضي.

قالت لنفسها: التليفون الأرضي؛ كيف لم أنتبه أنه يمكنني استعادته، لكنه تحت السرير مباشرة، يمكنني النجاح في الأمر إذا لم ألمح المفاتيح في الأسفل.

نجحت ساندي في إقناع قدميها بالتقدم خطوة داخل الغرفة، وبعد عدة جولات سريعة بعينيها في أرضية الغرفة وتحت السرير وعلى الأريكة

التي كانت تنام عليها تأكد أنه بات من اليقين أن المفاتيح لاقت نفس مصير الشاحن وأنه ما عاد أمامها شيء ينجدها إلا التليفون الأرضي الذي تحت سرير النائمة، والسماعة عندما سقط انفصلت عن العِدّة.

كيف يمكنها إقناع قدميها بالتقدم، وهي تتساءل:

لماذا قدمايَ ترفضان التقدم وتتسمران هكذا رغم أن قلبي وعقلي مقتنعين بفكرة الاستغاثة الأخيرة؟!.

يقولون إن الجسم ذكي جدًّا ويحمي نفسه تلقائيًّا من مخاطر قد لا يراها العقل أو ترسل له العينين بها صورة!!.

لم يعد أمامها سوى نقل قدميها بيديها كما كانت تفعل أثناء خروجها من الغرفة واستعانت على ذلك بأنها جعلت عينيها لا تنظران للنائمة حتى لا يزداد الخوف؛ وراحت توزع نظراتها في أماكن مختلفة من الغرفة.

وبالفعل بدأت في تنفيذ العملية ونقل قدم تلو قدم باتجاه التليفون الأرضي الملقى تحت السرير وسماعته المفصولة عنه منذ وقع أثناء الاتصال القادم من محافظة البحيرة من ابنة خالتها ملك الحقيقة أو مهما يكن إنها لم تعد تعلم شيئًا سوى الفرار لا سيما وأن الساعة قاربت على الواحدة بعد منتصف الظلام.

ها هي قد وصلت إلى منتصف العملية المرعبة، إنها الآن تحديدًا تقف عند قدمي النائمة لكنها لا تزال تجبر عينيها على عدم النظر إلى هذا الكفن اللعين.

اتسعت حدقتا عينيها فجأة ووقف ما لم يكن قد وقف من شعرها وعاد الشلل بعدما لمحت وهي تنظر بجانب عينيها شيئًا قد تغير في معالم قدميّ النائمة كما لو أن قدميها مكشوفتان.

اتخذت قرارًا مفاجئًا بالنظر نحو القدمين؛ فإذا بهما قدمين كبيرتين لامرأة عجوز جدًّا!!.

وكأن أقدام ساندي قد تحولَتا إلى جناحين فلم تشعر بنفسها إلا وهي خارج الغرفة تقف في الزاوية التي كانت تقف فيها قبل أن تدخل، ثم استدارت لترى النائمة وتعيد النظر إلى قدميها المكشوفتين فإذا بهما بالفعل قدمان لامرأةٍ عجوز مسنَّةٍ وكأن عمرها ثلاثمائة عام.

عادت ساندي لتلقي نظرة للبحث عن مخرج في مختلف أرجاء المكان وتحدث نفسها:

النوافذ مغلقة بسياج حديدي.

الباب الرئيسي مغلق.

الباب المؤدي للطابق الأعلى مغلق.

الباب المؤدي للبدروم مغلق.

الوضع سجينة مهددة بالموت رعبًا أو ربما تلك النائمة ستقوم بالمهمة.

من الحلول المستحيلة مواجهة النائمة مهما كان المجهول!!.

.. وبينما كانت تحدث نفسها جاءتها فكرة جريئة..

اتجهت ساندي نحو النافذة وفتحت الزجاج وألقَت نظرةً على الشارع من خلال الشبك الحديدي فوجدته مزدحمًا بالكلاب التي بدا كأنها مسعورة تبحث عن شيء غريب وكأن هذه النائمة لها علاقة بوجودهم؛ لاسيما وأنها وجدت بعض الكلاب بها كثير من الخدوش في رقابها كعلامة على تخلصها مما كان يقيدها في الثيلات القريبة.

ازدادت بشاعة الرعب واحتارت هل فكرة الصراخ لا تزال قائمة أم لا.

وبينما هي في حيرتها وسط انقطاع أنفاسها من مقاومة ما يحدث فوجئت بانطلاق الكلاب باتجاه نافذتها.

ولأن النافذة التي تقف فيها عالية؛ لم يخيفها جدًّا انطلاقهم باتجاهها وبدت نصف ثابتة على الكرسي الخشبي التي تقف عليه والذي يهتز من تحتها أصلًا، لكن حدث ما هو أبشع!!.

الكلاب تقفز لأعلى بجنونٍ ووحشية، لم يفلح قفزهم في بادئ الأمر لكن لأن معظم هذه الكلاب مدربة فقد فوجئت برجوعهم للخلف وانطلاقهم لأعلى باتجاه الشبك الحديدية بجنون!!.

يا للهول!!، لقد نجح اثنان منهم بالقفز ولمس حديد الشباك، وقد عادا بعد سقوطهما مع العشرات منهم لتكرار الهجوم.

سقطت من أعلى الكرسي وعادت للتقيؤ، لم يعد أمامها إلا غلق الزجاج والتراجع، أحضرت الكرسي مرة أخرى ووقفت عليه في مقابل الشباك المطل على هجوم الكلاب ففوجئت بأرجلهم التي التقطَت الحديد وما تبقى إلا أن تنفذ منه؛ فأغلقت الزجاج في اللحظة الأخيرة على قدم أحدهم الذي جن جنونه؛ ففتحت النافذة فتحة صغيرة حتى شد قدمه وبقوا معلَّقين ينبحون ويضربون الزجاج وهم في حالة هياج عارم.

الكلاب المتوحشة تريد أن تفترسها في الخارج.

النائمة المجهولة في الداخل.

الساعة قاربت على الثانية بعد منتصف ليل كفر عبده المظلم.

عادت لتقف من جديد في الزاوية إياها لتلقي نظرة على النائمة فلم تجدها على السرير!!.

اشتد الرعب في ملامحها وظهرت عروق رقبتها من فرط كتم أنفاس صدرها.

تراجعت ساندي في آخر ركنٍ من الصالة الواسعة لتقف خلف رخامة المطبخ الدائري المفتوح على الصالةً لتشاهد ماذا سيحدث وهي ترتعد.

فكرة جيدة أن تحمي نفسها وتمسك السكين، فاستدارت لتبحث عن السكين فلم تجدها، إنها مصيبة اختفاء الأشياء!!.

عادت لتكتم أنفاسها خلف الرخامة، ومن فاصلٍ صغير يفصل بين الرخامة وجدار المطبخ راحت تراقب بعينين مرتعبتين.

أين ذهبت النائمة؟!.

ترى من تكون؟!.

ماذا تريد مني؟!.

يا للهول، انقطع التيار الكهربائي في المنطقة، غريب أن ينقطع التيار في هذا الحي الراقي!!.

يبدو أن الكون يتآمر ضدي لصالح هذه المخلوقة.

المكان مظلم تمامًا حد العتمة.

الكلاب هدأت!!.

الأنفاس مكتومة.

تبدو مغسولة من شدة العرق.

أبشع هدوء حدث في تاريخ الظلام.

تنصت ساندي وهي تحت الرخامة إلى صوت قدمين قادمتين في العتمة باتجاه المطبخ!!.

اتسعت أحداق عينيها لتكتشف شكل تلك المخلوقة.

صوت القدمين لا يزال في الطريق نحو المطبخ بإيقاعٍ ثابت.

توقف الصوت أمام الرخامة قبل ساندي بخطوة على الأكثر.

صرخت المخلوقة صرخة مدوية أعادت السعار للكلاب التي راحت تهجم بجنون من جديد.

ساندي ترتجف بعنفٍ وهي تمسك بطنها وتفكر:

لو كانت تعلم مكاني أو تراني لكانت قد هاجَمَتني.

رفعت رأسها ونظرت في الظلام فإذا بنور خافت من إحدى اللوحات التي لها القدرة على إصدار ضوء ذاتي في العتمة.

المخلوقة لا تزال تمشي وذلك اللحاف الأبيض يغطي وجهها وجسمها.

عادت المخلوقة للصراخ الهائل وهي تتحرك بثبات مرعب في أرجاء الصالة الواسعة.

الكلاب لا تزال تعلن عن وحشيتها في ضرب زجاج النوافذ.

الظلام المريب يسيطر على المنطقة.

تكوَّرت ساندي تحت الرخامة ككتلة متجمدة مصابة بالشلل.

شعرت ببعض النزيف.

ازداد النزيف.

وصل إلى قدم المخلوقة.

المخلوقة تتبعت جريان الدم.

وصلَت إلى ساندي.

وضعت المخلوقة حبل مشنقة غليظ بهدوء في رقبة ساندي التي كانت ترتجف ثم شدت بعنف رقبة ساندي بالحبل فجأةً.

إنها ليست فقط محاولة شنق بالحبل وإنما هذه المخلوقة تشد الحبل لدرجة الذبح به وفصلِ الرقبة عن الكتفين تمامًا.

وقبل آخر نفس لساندي وقبل آخر نظرة لها في الدنيا لمحَت في الظلام شيئًا رهيبًا يبدو مثل بابٍ في سقفِ السماء مفتوح يبدو منه مبنى غير واضح المعالم ويبدو من شكله أنه ينادي عليها بما يشبه الاستغاثة.

.. ساندي ابنتي الحبيبة أرجوكِ استيقظي أرجوك أنا أمك.

أنا أبوك يا ساندي يا حبة عيني ماذا يحدث لكِ وأنت نائمة.

يا حبيبتي أرجوكِ أنا زوجك حمّاد والله العظيم.

لا إله إلا الله، بسم الله الرحمن الرحيم، يارب رحمتك بابنتي يارب يارب يارب يارب.

أمي أمي أمي!!!!!!!، الكابوس الطويل إياه يا أمي!!!!، النائمة في الكفن وقيلا جدي المظلمة في كفر عبده والكلاب المسعورة؛ أمي أمي..

جلس الجميع يتنفس الصعداء ويراقب عنق ساندي الملتهب، ثم لاحظ أبوها نزيفًا من أسفلها فنقلوها إلى المستشفى.

الحالة: نزيف خفيف نتيجة الحزق الشديد.

حالة الجنين: جيدة جدًّا.

العلاج: علاج روتيني مصاحب لحالات النزيف.

ساندي: أرجوك بعض المنبهات لأني لا أريد أن أنام بعد اليوم.

عودة إلى البيت...

الأم: كنا نوقظك منذ أربعة ساعات يا حبة عيني يا كبدي يا ابنتي.

زوجها حماد: ألم تسمعي صراخنا عليك كل هذه المدة؟!.

الأب: أرجوك يا حماد، ألا تمل من تكرار هذا السؤال عليها كل مرة؟!.

الأم: أعتقد أن الأمر يحتاج لما هو أكبر من العلم والطب البشري والنفسي نحن طرقْنا جميع الأبواب إلا باب ال....

حماد: لن تذهب زوجتي لمشعوذين!.

أبوها يتمتم مع أنفسه: لا أحب المثاليات والشعارات وأنسحب من أي لقاءٍ أشعر فيه بإفلاس التلقائية وهذا حرام وذاك حلال واستقامة الظهر وشَد البطن والشوكة والسكينة.

جلس حماد ينفخ غير معجب بالوضع.

عاد الأب للتمتمة: مصيبة كبيرة أن تكون متنمرًا بكامل ملامحك وانحطاط حديثك بينما أنت تعتقد أنك ملامك بجناحين.

ارتفع النفخ.

سكوت مفاجئ بعد نظرة غاضبة من الأب باتجاه زوجها حماد.

كان الصمت الرهيب يسيطر على ضوضاء الألم التي كانت أكبر من أن تُحتمَل؛ إذ كانت حبَّتيّ عينيه لا تفارقان وجهها الذي توحَّشَ في تقاسيمه الوجع.

قال حماد ملوِّحًا بيديه ومعترضًا:

لكن لا لا؛ مشعوذون ونكفر بالله!!.

رد عليه الأب وهو يكظم غيظه:

يجب أن يكون لديك سماعة داخلية تسمع بها صوتك قبل أن يخرج على سبيل التجربة لترى إن كان سيفزع الآمنين.

اندفع حماد:

لكن..

انفجر الأب وقاطعه الأب: اخرج!.

خرج زوجها حماد خارج الغرفة وسط انزعاج عارم وفوضى رهيبة فتبعه أبوها يجزّ على أسنانه قائلًا:

تحلَّى بالصبر وعليك مراعاة نفسية الجميع يا زوج ابنتي واعلم أن الحقيقة ليست هي الحق وإنما الصواب.

وما الصواب برأيك يا عمي؟!.

الصواب أن نطرق جميع الأبواب، والذهاب لمشعوذين ليس لغرض الشفاء أيها الساذج وإنما لكسب مزيد من الأمل الوهمي الذي نصبِّر به ساندي، ابنتي تموت أمام عيني كل يوم وأنا لن أجلس فارغ اليدين هكذا.

آسف يا عمي، هونًا عليك، كلنا موجوعون لكن...

لا يوجد لكن، وكما قلت لك لا تجعل الوضع يخرج عن السيطرة بهدوئك هذا، ثمة أوقات يسبب فيها الهدوء ضوضاء عارمة، فأرجوك لا تعصَّبني و...

حاضر يا عمي لكن...

اخرج لا أريد أن أرى وجهك حتى تشفَى ابنتي.

لكن..

قلت لك اخرج وهذا قرار.

لن أترك زوجتي.

ولن أترك ابنتي لأحمق مثلك بعد الآن، لا تجعلني أغضب أكثر من هذا.

انفجر حماد بقبح شديد: تزعمون أن الإيمان يملأ قلوبكم وأنت تذهبون في النهاية إلى طبيب نفسي.

قاطعه عم نبيل بهدوء غاضب:

على الناس أن يذهبوا لزيارة طبيب نفسي كل فترة غير طويلة لا سيّما هؤلاء الذين يظنون أن المرض النفسي يأتي من نقص الإيمان ولا تسألني عن السبب.

وتذكَّر الأب محاولة ابنته ساندي إقناعه بالعدول عن صلابة تصميمه على زواجها من ذلك الحماد حين قالت «قصص الحب لا تقبل بأقل من رتبة مقاتل، أعتذر؛ الأمر لا يتعلق بكونك لائق طبيًّا؛ أو أنك لم تنجح في اختبارات كشف الهيئة وإنما أنا بالأساس كأي فتاة أريد رجلًا».

لكن الأب كان مضطرًا للضغط عليها حتى يضمد جراحها العميقة من حبيبها الكاتب المليونير الذي كان يريد أن يتزوجها سرًّا «زواج عرفي» دون علم أهله خوفًا منهم على الثروة التي لا يريدونها أن تكون لأحد خارج العائلة وقيل له: «الأنثى التي تعيش معك لأنك غني ستظل تتهمك بالبخل حتى إعلان إفلاسك».

قال مراد:

ماذا لو أن أحدهم أعطاك طفلة أجمل من طفلتك وفوقه الكثير من الأموال ثم طلب منك في المقابل أن تعطيه طفلتك هذه هل ستقبل؟!.

بالطبع لا.

هذا هو الحب حينما تقول لي اتركه من أجل أي شيء.

ليس هذا فقط؛ بل إن والد مراد قد ركب سيارته الفارهة وذهب إلى عبدالرحمن والد ساندي وهدده بالفضيحة لو لم تبتعد ساندي عن ابنه قائلًا:

أنا أسكن في برج زجاجي بينما أنت لم يبقى لك إلّا أن تفترش الشوارع كالمشردين.

عجبًا؛ أنت تصف لي المكان الذي يضعون فيه الأحذية والمكان الذي توضع فيه الكتب.

أيها الحقير لن تخطف ابنتك التافهة ابني مراد الشاب الغني الوسيم المتألق.

لو قاموا بتغيير غطاء البالوعة من الحديد إلى الذهب الخالص هذا لا يعني أن الذي تحتها سيتغير.

لكن بعد طول صراع تزوج مراد ابنة عمه!!.

لكنه عاد راكعًا إلى ساندي بعد ذلك وعرض عليها أموال الدنيا لتقبل لكنها كانت قد تزوجت من حماد وتشابكت العلاقات وتعقّدَت الخيوط حتى أنه حاول الانتحار أكثر من مرة بعد أن قالت له ساندي المغدور بها:

لقد شاء الله وذهب بك إليَّ بعد أن قامت حِبال الحنين بتكتيفك كمجرم سرقني بالكمال والتمام ثم ألقت بك أمامي؛ الله أعاد المسروقات كما لو أنني

لم ألتقي بعميد اللصوص؛ واذكر إذ كنت أحبو كمشلول عليك وأنت تغادر روحي وأصرخ عليك قائلةً «إن الله سيفرِقُ لي البحر ويغرقك من بعدي» لقد دعوت الله أن يوقف لساني عن الدعاء عليك فأصيب لساني بالشلل لكنني نسيت أن الله يسمع القلوب وقلبي كان لا يزال يشتهي أن يرى فيك يومًا أسودَ».

فدفع لها بصديقة مقربة منها لكي تحاول معها كي تفتح على الأقل بابًا للجلوس على طاولة واحدة، قالت لها ساندي:

إنما النسيان فرض ولكن ليس من أول ساعة أو من أول يوم إنما من أول دقّة قلب بعد توقيعه في دفاتر الغائبين.

لماذا؟.

لماذا التسرع؟.

الغياب هنا حضور في مكان آخر؛ حتى وإن عاد لن يعود بذلك التوقيع القديم؛ لا أنا هو أنا ولا هو ذلك الذي كان.

ماذا حل بك يا ساندي ومن أين أتيت بهذه الطمأنينة؟.

ويوسع الله عليك ليس بما يعطيك وإنما بحجم ما تستغنى؛ ليس فقط يجعلك لا ترغب فيما ليس لك فقط؛ إنما كأنه لم يمر عليك يومًا ولا في الخيال.

عادت الصديقة لمراد فقالت:

لقد قمت بإهانتها والاستخفاف بها كثيرًا أنت وأهلك لمجرد أنها ليست من نفس الطبقة الاجتماعية.

كانت مجرد نقاشات خفيفة كنت أحاول فيها توصيف الأمر وتوضيح أبعاد المستقبل.

قالت:

ذلك المصوِّر الذي يقف خلف الكاميرا قد لا ينتبه لكل تفاصيل المشهد كما أنه قد لا يتذكره فيما بعد لكن الكاميرا تسجل كل شيء وتقوم بتخزينه.

المصور هو العقل الواعي والكاميرا هي العقل اللاواعي.

ماذا تقصدين؟!.

المرأة هي تلك الكاميرا، وتقوم بتسجيل الكبيرة والصغيرة وتلك الجُمل التي توجد على ملامح حبيبها.

لم أفهم.

أقصد أن كل الجرائم الصغيرة التي فعلتها معها تراكمت وصارت جبلًا على صدر الحكاية ونحن الآن أمام رواية محكوم عليها بالإعدام.

حاولت الصديقة اصطياد مراد لنفسها:

كنت أظنك قليل الأدب.

وما الذي جعلكِ تغيرين رأيك؟.

أنك لم تنظر حتى لطرف ثوبي.

كل ما في الأمر أنك لست من النوع الذي يروق لي.

وما نوعك المفضل أيها الحقير؟!.

ساندي.

.. خرج حماد وهو يشعر بالإهانة وقليل من الغضب، ربما هو راضٍ عما يقترح عليه عقله أو دينه في مواجهة أبيها أو ربما يكون ذلك هو شعور زوج لكن هذا هو شعور أب.

عاد الأب ودخل على ابنته التي كانت أمها تغسل لها قدميها المتعَبتين المتَّسختين، ثم وجد ابنته ترفض النوم وتتناول المنبهات خوفًا من تكرار الكابوس؛ فتبادل معها وزوجته أطراف الحديث، وكان الجميع قد اقتنع بطَرْق كل الأبواب وأنهم إذا طرقوا باب دجَّال فهذا لا يعني إيمانهم به وإنما مجرد مسكنات قد تحدِث أثرًا.

إنه سلوك الغرقى وتصرفات الذين التهمَت ملابسهم النار أو الذين تطاردهم الذئاب في غابة، لا دخْل لردود أفعالهم بالمنطق وإنما بالصواب في محاولة فوضوية للنجاة.

وفي الحال راح الأب يتصل بمعارفه وبعض جيرانه وبدأ في رحلة البحث عن أي علاج في أي مكان بأي طريقة.

قرءوا عليها القرآن كثيرًا.

ذهبوا إلى عدد لا بأس به من الكنائس.

بعضهم ضربها بعنف لإخراج الجن على سبيل اعتقادهم.

بعض المشايخ طلب ما يقرب من نصف دكان العطّار ليخلطه بمقادير، وفي النهاية اكتشف الأب أن هذا الشيخ صاحب الدكان!

وطبيب العيادة يعرف الصيدلي.

في أشد المواقف الإنسانية ألمًا؛ إن تحوَّل البشر إلى كلاب فسوف يرون كل شيء أمامهم ذبيحة.

هناك مَن أراد الانفراد بها في غرفة مظلمة!!.

وما بين رفض الأب لهذا وقبوله لذاك كانت رحلةً شاقة جدًّا.

انفعل أبوها قائلًا في تهوُّرٍ:

ساعدينا وساعدي نفسكِ وقدمي تفسيرًا مفصَّلًا لكل من يسألك ممن نذهب إليهم دون أن يبدو على ملامحك الضجر.

قالت في غم كبير:

أنا الآن كل شيءٍ من الممكن أن أتخيّله لكن ليس أنا!!.

النتيجة صفر؛ لدرجة أن أحدهم فسَّر ذلك كله بأنه مجرد اضطراب أو صراعها مع نفسها في عقلها حين قال «ثم تكتشف أن المجني عليه هو الجاني

نفسه والأسوأ من هذا أنها شخص واحد يتقن القيام بدورين، هل تعرف الأشد سوءًا، أن هذا الشخص هو أنت».

فقالت له: تبًّا لك؛ انا متصالحة مع نفسي جدًّا أيها الأحمق، والعمق في التفكير والتحليل جميل لكن ليس لدرجة أن تنزل إلى طين القاع وتخرج علينا بحبوب الهلْوَسة.

ولا تزال ساندي تقاوم النوم بعنف خوفًا من تكرار ذلك الكابوس المرعب الذي لا يستطيع أحد إيقاظها منه لكنها في النهاية نامت!!.

تكررت المأساة!!.

أربع ساعات أخرى من كابوس جديد بنفس التفاصيل لكن هذه المرة وبعد أن انتبهت ساندي تركها ترتاح وسألها:

هل يحدِّثك عقلك الباطن في أثناء الكابوس بأن هذا الوضع قد تكرر من قبل وأنه يجب أن تتقبلي وجودك بداخل الكابوس كمشاهَدة فيلم للمرة الثانية وأنت على دراية بالأحداث، هل فهمتِ سؤالي يا ابنتي الحبيبة يا حبة عيني؟.

يا أبي أنا أدخل الكابوس كل مرة كأنه أول مرة!!، بدءًا من أنك تأخذني بالسيارة إلى مستشفى المعمورة حتى ذلك المبنى الذي أستيقظ وأنا أحاول أن أعرفه أثناء شنقها لي، افعل شيئًا يا أبي؟.

هل تعتقدين أنه في مقدوري فعل أي شيء ولم أفعل، لقد ذهب أبوك للدجالين وأنت تعرفين أنني رجل متمسك بعقيدته وطوال عمري أتّهمهم

بالكفر واستغلال البسطاء، هل تعلمين ما معنى أن رجلًا يعصي الله وهو يخشاه؟!!.

وعاد طيف زوجها يتهيأ لها؛ ذلك الذي لا تسيطر عليه سوى مشاعر الرغبة وهو يبلع من اللهفة ريقَه؛ وكل محاولاته لكي يبدو هادئًا يظهر كذئب أعلن الإقلاع عن اصطياد الدجاج ثم مرت عليه دجاجة مكتنزة ذات جوع.

إذا كانت الجراحة في العمود الفقري للروح فأي جنب ننام عليه سيكون مؤلمًا، وأعظم شيء من الممكن أن يخفف عنا هو ألّا نجد ملامح الذين حولنا باردة.

كانت الأم تقرأ القرآن وتقلِّب في صفحاته كمريض سرطانٍ يبحث في صيدلية عن مسكِّنٍ.

شيء ما أخذ الأم باتجاه سورة يوسف، وكان الحوار بين الأب وابنته قد بدا عليه علامات الحزن الجارف وموقعة من الدموع الدموية حتى قاطعتهم الأم وكأنها عرفت الطريق أو وجدت خيطًا.

يا عبد الرحمن؟.

ماذا لديكِ يا حنان؟!، لماذا تصرخين بفرح هكذا؟!.

نحن لا نحتاج لدجال ولا لشيخ؛ ابنتنا ليست ملبوسة أو بها مس كما قلت.

وماذا نحتاج برأيك؟ وماذا وجدتِ في كتاب الله؟!.

أنا في سورة يوسف يا عبد الرحمن!! «نبِّئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين».

ياللهول!!، كيف لم ننتبه أننا نحتاج لمفسر للحلم؟!.

هيا بنا يا عبد الرحمن يسكن في إحدى القرى رجل صالح، ويقولون إنه بارع في الأمر كما أنه لا يتقاضى مقابل ذلك أجرًا.

هل آتي معكما يا أبي؟.

بل أنت قبلنا يا ابنتي الحبيبة!!.

ابتسمت ساندي من العمق وارتاحت لما توصل إليه الوالدان من حِبال الأمل الجديدة، وفي أقل من دقيقتين كانوا في منتصف الطريق وكان الليل قد بدأ ينزل بستائره وحان موعد صلاة العشاء.

وفي مسجد بين رشدي وقرية المشروع حيث يسكن ذلك الصالح نزلوا جميعًا بعد أن ركن الأب السيارة ليصلّوا العشاء في جماعة، وبعد الانتهاء من الصلاة قال الأب وهو يسوق بزوجته وابنته المنكوبة:

من منكم يدرك ما أريد أن أقوله؟.

فأجابت ساندي: أنا يا أبتاه وأراهنك على ذلك.

فانتفضت الأم تسأل في دلال: وهل تظنان أنني لا أدرك ما في بالكما؟.

قولي يا حنان ولك مني هدية كبيرة وأقسم على ذلك.

هل تعلم أن قَسمك هذا يعني أنك لا تثق بقدراتي؟.

هيا يا أمي دعينا نرى ما عندك لتكسبي الرهان!.

ما جاء في خاطر أبيك هو حلاوة المحنة؛ بأننا صلينا معًا في جماعة وأننا متوجهون الآن إلى رجل من الصالحين وأننا لم نكف عن الدعاء والفرار إلى الله، بصراحة لا أذكر أننا رطبْنا ألسنتنا بذكر الله وبهذا الطعم الجميل قبل هذه المحنة.

فقال الأب وهو يبتسم في دهشة: والله يا حنان هديتك عندي بعد شفاء ابنتنا كبيرةً جدًّا.

هالة من الفرح الجميل وسط حديقة من الأحزان.

التفت عبد الرحمن إلى حنان وقال بينما كانت ساندي تنظر إليهما وتبتسم:

ويبقى الحب كلمة السر؛ ليس البقاء للأكثر مالًا أو سلطة ولا حتى الأكثر حنانًا باهتمام إنما البقاء لمن يحبنا إذا كنا نحبه.

بدأت معالم القرية في الظهور، بيوت بسيطة وشوارع شبه خالية.

سأل الأب أحد المارة عن بيت «عم نبيل» فأشار إلى بيت في آخر القرية بطابقٍ واحد قديم لكن أمامه أشجار ضخمة وعالية تميزه، قالت حنان:

نترك المدينة والأبراج الشاهقة والعيادات والأطباء وكبار المشايخ ونأتي لهذا المكان؟!.

قال زوجها:

حينما تعرف الفارق بين فصّ الألماس الصغير وسبعة كيلوجرامات من أي معدن آخر، تعرف أنه ليس بالحجم قيمة الأشياء.

بعد السلام استأذن الأب الشيخ نبيل لتحكي ساندي بالتفصيل ذلك الحلم الذي يتكرر فدمعت عين عم نبيل ذلك الرجل العجوز الذي بدا كالقمر وجهه، ويبدو صمته مريحًا جدًّا لساندي.

قال عم نبيل محدِّثًا الجميع: الحلم عندما يتكرر لا يكون حلمًا وإنما رؤيا والرؤيا يا ابنتي الحبيبة ليست لمجرد عقل باطن يردد صدى الماضي وإنما هي رسالة مباشرة ويجب عليك تنفيذها، ولا تقولي أن عم نبيل جعلني جنديًّا ولكن على ما يبدو أن الله هو من أراد تجنيدك.

استطاع الرجل في جملتين فقط أن ينقل ساندي من منطقة الدفاع إلى منطقة الهجوم وانفرجَت أسارير ملامحها وأشرق وجهها ببريق يشبه أفراح الأنبياء ثم قالت:

كيف يا عم نبيل، أين الرسالة؟.

الرسالة تبدأ في الخلاص من الباطل، ولأن الباطل متعدد فلن يمكننا معرفته بالتحديد حتى وإن أمكننا ذلك فسيكون ضربة حظ ولن يفيد في شيء، أم الحق فهو واحد وهو بالنسبة لحلمك بحسب اعتقادي كما قلت لك

يبدأ عند مرحلة الخَلاص، وهو ذلك الباب الذي قلتِ إنه في سقف السماء مفتوح في أشد اللحظات التي تمر عليك في الرؤيا أثناء إعدامك شنقًا على يد النائمة.

بدا لي يا عم نبيل تفسيرك منطقيًّا لكن لا تزال الرسالة مجهولة وشديدة الغموض؟.

نحتاج إلى تفسير لذلك الشيء الذي تشاهدينه عندما يشتد الشنق، وبالمناسبة هذه النائمة العجوز تمثل الباطل أو هي رمز له وهي تشتد عليك كي لا تشاهدي بوضوح تلك الرسالة، والتي أظنها ستكون نقطة تحول كبيرة في حياة أشخاص كثيرين في هذا العالم لكنني حتى الآن لا يمكنني تقديم تفسير وربط حلقات اللغز لتفسير الرؤيا إلا بعد مزيد من الوضوح.

قال الأب مقاطعًا عم نبيل: هل هذا يعني أنها ستخرج من هنا لتواجه كابوسًا عصيبًا من جديد.

لا والله يا عبد الرحمن لن تخرج أنت وزوجتك وابنتك إلا وأنتم بإذن الله مجبورون.

من أين لك كل هذا اليقين يا عم نبيل وكأنك تقرأ من كتابٍ في السماء مفتوح.

أن تكوني على يقين يا ابنتي أن الله سيشفيك فاعلمي أن الله سيشفيك بقدر يقينك.

ابتسمت ساندي ابتسامة تشبه نزول المطر على زهرة في لحظاتها الأخيرة قبل الموت عطشًا وسالت من عيني الملائكية الدموع وعادت لتسأل:

هل...

فقاطعها عم نبيل قائلًا وكأنه تنبّأ بالسؤال:

بالطبع يا ابنتي عندي غرفة الأطفال هناك لا تزال خالية ولم يرزقني الله بأطفال.

وأين زوجتك لنستأذنها أيضًا يا عم نبيل، هذه هي الأصول؟.

نادى عم نبيل على زوجته فإذا بها تخرج عليهم بوجهها الهادئ وتلقي على الجميع السلام فقالت حنان:

ما شاء الله زوجتك جميلة يا عم نبيل!!.

فقال عم نبيل وهو ينظر إليها:

تركْتُ الدنيا فأتاني الله بها؛ أفزعني جمال تقاطيع وجهها يوم رأيتها أول مرة؛ ذهبَتْ بي أقدامي إليها وقالت: تعودت أن أقرأ الآيات لكنني لم أتوقع أن أراها أمام عيني.

قالت ساندي وهي تبتسم:

يا لرومانسيتك يا عم نبيل، الله الله!!.

نظر عم نبيل إليهم وقال: كم يكلفك السفر إلى أجمل مدينة في الوجود ثم أجمل مكان في هذه المدينة ثم أجمل بيت فيها ثم أجمل منظر تطل عليه من نافذة هذا البيت ساعة شروق النهار، يكفني فقط أن تفتح عينيها في صباح الله على الدنيا تحت سقف السماء.

فجّر عم نبيل ينابيع الأمل حتى أن حنان سألته:

لماذا يتحدث الأئمة كثيرًا جدًّا عن أركان الإسلام ولا يتحدثون عن السقف الذي تحمله هذه الأركان؟!.

وما السقف الذي تحمله الأركان؟.

لا أعلم ولكن لا بد أنها تحمل شيئًا عظيمًا مثلًا كالإنسانية.

مثل ماذا مثلًا؟.

مثل أن يتم الترويج بنفس حجم الترويج الذي يحدث للحج في أن يطوف الأغنياء سبعة أشواط في شوارع الفقراء لعلهم يجدون بيتًا يحتاج لسقف أو مريضًا لا يملك ثمن مسكِّنٍ للألم أو امرأة من الغارمين في السجن.

لقد نقل الرجل الحوار نقلةً أخرى وجعل الجميع في حديث غير الأحاديث، ربما يكون قد بالغ بعض الشيء، لكنه نجح، إلّا أن ذلك النجاح العارض لا يخفي الحقيقة المرعبة.

.. علم الجميع أن ساندي بعدما دخلت الغرفة أنها بانتظار النوم وأنها بانتظار المشنقة وهذه أول مرة تطلب ساندي فيها النوم.

لم يأتِ النوم ولم يقترب؛ دخل أبواها عليها فقرروا العودة إلى بيتهم ليتركوا عم نبيل على حريته، على أن يأتوه بعد الكابوس القادم إن استطاعت ساندي أن تلتقط تفاصيل أكثر؛ فوقف الرجل الشهم عم نبيل في طريق خروجهم ومنعهم قائلًا:

أنا وزوجتي سنترك لكم البيت؛ البيت المجاور بيت أختي وهي تعيش وحدها مع أطفالها بعد رحيل زوجها.

انهار عبد الرحمن رافضًا الفكرة فأقنعه عم نبيل قائلًا:

ابنتك تشعر هنا بأمان أكثر، إنها ستقاتل وتحتاج إلى طاقةٍ أكبر وتحتاج أيضًا مزيدًا من الدعم ومزيدًا من الذين يقفون بجانبها.

شعر عبد الرحمن أنه ليس ثقيلًا على عم نبيل، فكانت فرصة لأن يوافق دون تردد.

أشار لهم على مكان المطبخ والحمام ونصحهم ألا يرافقوها ولا يحاولوا إيقاظها، فتمددوا على كنب الأنتريه وتركوها تغفو وفي الصباح كانت المفاجأة.

دماء غزيرة تنزف من رقبة ساندي أغرقت مرتبة السرير وأرضية الغرفة، صرخت أمها فكتم عبد الرحمن فمها وطلب الإسعاف لكنه لم يصبر حتى تأتي بل حمل ابنته لأقرب مستشفى.

رفض الأطباء التعامل مع الحالة في المستشفى الخاص فانطلق بها إلى مستشفى الميري الجامعي، وهناك استدعى المختصون الشرطة لكن ساندي الآن في غرفة العمليات ومنها إلى قسم الطوارئ.

آثار حبل غليظ أصابها بجروح عميقة حول العنق!!.

لم تصدق الشرطة رواية أبيها عبد الرحمن ولا الأم إلّا أن ساندي عندما أفاقت من التخدير بدا عليها الصدق؛ الشرطة كانت تريد تسديد المحضر بكلام منطقي مقبول؛ فقيل إنها محاولة فاشلة للانتحار وتم التوقيع على المحضر بعد استدعاء ضابط كبير حين قال في لمسة إنسانية بسخرية مقبولة:

في شكل معقول من الرضا انتهت أزمة كتابة سيناريو المحضر بعيدًا عن الخيال العلمي.

وبطبيعة حال عملهم انصرف رجال الشرطة وهم يضربون كفًّا بكف.

الأطباء يعلمون ما يصل إليه المريض النفسي لكنهم لم يصادفوا مثل هذه الحالة المخيفة.

هنالك طبيبة تراجعت خشية أن تلحقها لعنة ما.

وبعد انتهاء الأطباء من جروحها الغريبة سألها أبوها بعينين دامعتين:

هل هناك جديد يا ساندي؟.

خذني الآن يا أبي إلى عم نبيل حالًا.

انطلقت الأسرة المنكوبة في جو يسوده الغموض المعجون ببعض الأمل؛ دخلوا القرية مرة أخرى وسط تشييع عيون الأهالي لهم باستغراب، القرى في مصر الجميع يعرف فيها الجميع، والغرباء دائمهم يتركون علامات استفهام على الأهالي لا سيما إذا تكرر دخولهم، وكان الأب يتوقف بالسيارة بمحاذاة باب بيت عم نبيل مباشرة؛ ملابس ساندي المتحررة لا تتناسب وجو الأرياف كما أنه لا توجد بالأساس مساحة في شوارع القرى للاختلاط المشروع بحيث يتأكد الشاب من مشاعره وكذلك الفتاة، وما إن يقف شاب مع فتاة في أي مكان حتى تجد مليون شائعة من بينها على الأقل أن تكون حبلى في الحرام.

وأمام بيت عم نبيل وقف واستقبلهم بترحيب بالغ كعادة الطيبين من أهل الريف، راحت ساندي تحكي كابوس الليلة الماضية:

نفس الكابوس ككل مرة من أمام مستشفى المعمورة إلى آخره إلا عند شنْقها لي كادت أن تنجح في إعدامي حقيقة وكأنني في عقلي الباطن كنت مصرَّة على ألا أغادر الكابوس قبل أن أجمع لك تفاصيل ما تراه عيني، وكأنها كانت كما قلت تريد ألا أقرأ الرسالة وألا أكشف معالم المبنى؛ والذي زاد هذه المرة هو أن لهذا البناء قبة سوداء!!.

سألها عم نبيل في شغف بالغ: نفس عدد الكلاب الذي هاجمك هذه المرة ككل مرة؟.

لا يا عم نبيل، نسيت أن أخبرك بأمر الكلاب، كان الأمر مختلفًا؛ لقد كانت هذه المرة جيشًا من الكلاب لا مجرد عشرات!!.

هل حدث معهم ما حدث أيضًا في أن أحدهم حاول الدخول فأغلقتِ على قدمه بين باب النافذة الزجاجية وجدار الڤيلا؟.

لا، هذه المرة نعم فعلوا كل شيء كأنه مكرر مع زيادة العدد لكن كنت حريصة على ألا يلحقوا بالنافذة وهي مفتوحة.

بالنسبة للحظة الشنق ومحاولتها طمث ما تراه عيناك، هل هناك جديد تستطيعين تذكره؟.

التقطت ساندي أنفاسها وابتلعت ريقها واستأنفت:

نعم، رأيت بقرة مذبوحة ومقطعة إلى عدد لم أتمكن من العد، أوف!!.

اهدئي يا ابنتي.

يا عم نبيل أنا فقط...

لا عليك يا ابنتي، هيا نرتاح قليلًا ونحتسي فنجان قهوة.

.. بينما يتناولون القهوة كانت ساندي تعصر عقلها لمحاولة تجميع الصور، قفزت فجأة ثم قالت:

قطعة اللحم التي كانت في الثلاجة هي جزء من هذه البقرة المقطَّعة، لأن القِطع كانت مرصوصة لكن ينقصها واحدة.

هل عرفت ترتيب هذا الجزء من القطع المرصوصة.

إنها القطعة الثالثة.

ثم سكتت وأغمضت عينيها وهي تشير وكأنها تعد».

واحد، اثنان، والمكان الثالث فارغ، ثم أربعة.. نعم يا عم نبيل هي الثالثة.

قلتِ لي أن القضمات كانت أيضًا ثلاث في هذه القطعة الثالثة؟.

نعم القطعة الثالثة بها ثلاث قضمات!!.

التفت عم نبيل إلى أبيها وسأله:

هل هناك وقت محدد كانت تستيقظ فيه ساندي؟.

أجاب الأب بحزن يتخلله الأمل:

ننجح في إيقاظها كل مرة في تمام الساعة الثالثة قبل الفجر!!.

اتسعتْ ابتسامة عم نبيل؛ يبدو أنه جمع خيوط الكابوس ثم استأنف يسأل:

هل لكِ أساسًا ابنة خالة اسمها ملك يا ساندي؟.

نعم، ولكنها متوفاه منذ ثلاث سنوات في حادث على الدائري.

هل لديكم ڤيلا أصلًا في كفر عبده؟.

أجاب الأب: نعم إنها ڤيلا أبي، جد ساندي يا عم نبيل، توفى وتركها لنا منذ فترة ونحن بالفعل نذهب هناك من وقت لآخر إلا أننا لم نذهب من فترة لأننا بصراحة كنا نود استئجارها؛ أنت تعرف ظروف وغلاء المعيشة.

ألا تتابعون ما يحدث في كفر عبده بالفعل هذه الأيام؟.

وماذا يحدث يا عم نبيل؟!.

أن الكلاب بالفعل أعزكِ الله يا حنان تهاجم إحدى الڤيلات بشكل مرعب لدرجة أن إحدى مذيعات برنامج (رعب أون لاين) قد صورت الهجوم وهو الآن على يوتيوب.

على يوتيوب؟!.

انتظر يا عم نبيل!!.

.. كتبت ساندي على تليفونها اسم البرنامج وقامت بتشغيل أحدث حلقاته وشاهدت بالفعل الهجوم الأخير وقالت:

يا للهول!!!، إنه هو يا عم نبيل منظر الكلاب حقيقةً!!!.

شاهد الأب والأم المنظر فأصيبا بالرعب، وقالت الأم:

أصابنا الرعب وارتجفت ضلوعي من مجرد مشاهدتي له على الهاتف، يا حبيبتي يا ابنتي تعيشين هذا الرعب لحظة بلحظة!!.

بدأ الجميع يستوعب ما يحدث بعمق شديد.

وبعد أن شاهد عم نبيل تفاصيل الفيديو مرة أخرى طلب من زوجته إحضار سرنجة من الصيدلية وسحب عينةً من دم ساندي وسط استغرابهم ثم اقترح عليهم:

نريد أن نذهب لنعاين معًا بعض التفاصيل في ڤيلا كفر عبده.

عبد الرحمن وابنته وزوجته في صمت يفكرون..

استأذنت الأم عم نبيل ليفتح النافذة لبعض التهوية وضوء شمس العصاري بعد يوم حافل بالقلق في المستشفى الجامعي والطريق إلا أن عم نبيل أشار بالرفض.

طلبت ساندي الانفراد بعم نبيل وهي تشير إلى كنبةٍ في الصالة، واستأذنت أبويها في ذلك، الأمر الذي جعل الأم تسأل زوجها:

ساندي تخبر عم نبيل شيئًا لا تريد لنا أن نعلمه.

تماسك عبد الرحمن وقال لزوجته:

نحن نثق بابنتنا، أليس كذلك يا حنان؟.

هزَّت حنان رأسها كإشارة على ثقتها.

كانت ساندي كما لاحظَتْ الأم أنها ربما تصف شيئًا، وكأنها تصف له منظر المخلوقة، ولمَّا نظرت الأم أيضًا في وجه عم نبيل لمحَت أنه قد بدا عليه الارتعاب الشديد، وكانت هذه أول مرة ترى الأم فيها عم نبيل بهذا الهلع الرهيب.

شعر عم نبيل بأنفاسها في المكان؛ بدا خيالها أمامه مباشرةً، ربما هذا هو سبب إصابته بالرعب؛ لكنه عاد للتماسك؛ على الأرجح أن ما رآه من وهْم الخوف لا سيما وأنه لم يلاحظ أحد أي شيء إلا هو.

لم تعد الأم تطيق انفراد ابنتها بعم نبيل وهي تشعر أن ثمة خطب كبير؛ فما استطاعت حنان إلا أن تلتقط آخر جملة من همس ساندي لعم نبيل وهي توشوشه:

احرص أرجوك على ألّا تخبرهما بشيء.

ما الذي تخفيه عني يا ابنتي؛ أرجوكِ؟!.

ابتسمت ساندي بحزن وقالت:

ثقي بي يا أمي، لن أقول إنني لا أخفي شيئًا وأكذب عليكِ، لكن ثقي بي، الثقة هي مركبنا الوحيد في محيط الرعب الذي يكاد يغرقنا.

أنهَى الأب المحادثة بعدما قرر تنفيذ رغبة عم نبيل في اصطحاب الجميع إلى ڤيلا كفر عبده لكن عند دخول الليل؛ كي لا يراهم أحد السكان أو المراسلين للبرامج ويلتقط لساندي الصور.

أخذ الموضوع شكل إعلامي رهيب ولم يكن أحد يعلم.

ارتاحوا قليلًا بعدما تركهم عم نبيل ولكن ساندي كانت تنظر إلى سقف الغرفة وتحرص على ألا تغفو.

حل المساء وبدءوا رحلتهم إلى كفر عبده ومعهم عم نبيل.

وأمام الڤيلا أخرج الأب المفتاح، وقبل أن يفتح وجد أن الباب عليه تراب خفيف إلا موضع المفتاح!!.

دخلت الأسرة ومعهم عم نبيل الشجاع.

الأب كان يخفي خوفه بينما زوجته حنان أم ساندي كانت ترتعش وتلتصق به.

الجميع وهم واقفون مكانهم يتجولون بعيونهم هنا وهناك.

لا يوجد لأي شيء أثر سوى منظر الدم المرعب المتناثر على أرضية المطبخ.

التقط عم نبيل عينةً من الدم وطلب من عبد الرحمن الاتصال بأي معمل على الفور ليرى إن كان مطابقًا مع دم ساندي الذي في السرنجة.

لم يجرؤ العامل الذي أتى لأخذ العينة على دخول كفر عبده؛ اتصل بعبد الرحمن الذي خرج بسيارته والتقى به في شارع أبي قير الرئيسي.

إلى هذا الحد قد تطور الأمر والناس كلها في الإسكندرية يعلمون؟!.

ساندي تشعر أن المكان مألوف جدًّا؛ تابعها عم نبيل بنظراته؛ لم يظهر عليها أثر الخوف.

رجع عبد الرحمن بسيارته بينما عم نبيل لا يزال يرسم بقلمٍ على ورقة بيضاء بعض التفاصيل بدقة شديدة.

نظروا إليه فخيل إليه أنهم يظنونه دجّالًا أو مخاوٍ للجن؛ فقال لهم:

اطمئنوا؛ إنني أقرأ من كتاب الله تعالى، لست أي أحد آخر غير عم نبيل الذي أخبرتكم أنه يحاول تدبر الأمر من خلال إلهام ربّاني وفتحٍ من الله ولست مشعوِذًا ولا أدَّعي النبوة.

أسرع عبد الرحمن قائلًا وهو يلتفت:

نثق فيك يا عم نبيل، لكل إنسان من اسمه نصيب وأنت بالفعل رجل نبيل.

فاستغل عم نبيل لحظة الثقة وقال لهم بينما يقفون جميعًا في صالة الڤيلا:

انظر يا عبد الرحمن وأنتِ يا حنان وأنتِ يأيتها المقاتلة ساندي، انظروا جميعًا؛ أعيروني قلوبكم جدًّا.

.. انتبه الجميع ثم استأنف عم نبيل يسأل وهو ينظر إلى الوالدين:

من منكما لديه القدرة على الانسحاب من المشهد وإعلان خوفه لأن القادم أسوَد؟!.

تلجلجَت الأم من صدمة السؤال ثم تماسكت وقالت: كان من الممكن أن أعلن انسحابي لكن ليس عندما تكون ساندي؛ إنها كبدي الذي يتمزق.

بكل صدق أنا لا أنسحب وهذا لا يعني أنني لا أخاف؛ أنا بشر، لكن ثق تمامًا أنني أمام ابنتي إن كان الموت يهاجم، وأنا في ظهرها إن كان الموت من الغادرين.

تماسك عم نبيل بعد جملة عبد الرحمن ثم أطلق مفاجأة مدوية:

ساندي المقاتلة العنيدة ستكمل القتال لكن سينضم بعد الجملة القادمة اثنان آخران، هما أبوك وأمك يا ساندي، الآن أنتم أصبحتم جيشًا.

تماسكت الأم جدًّا واختفت الدموع من أحداقها وقالت المسكينة وهي تدّعي الشجاعة:

ما الجملة بالتحديد التي تريد قولها مباشرة؟.

فأجاب عم نبيل دفعةً واحدةً:

التي تنام أمامكم لحظة الكابوس ليست ساندي ابنتكم.

لمعت عينا الأم وابتلع الأب ريقه لكن ساندي راحت تسأل في دهشة:

هل من الممكن أن توضح سريعًا ما تعرفه؛ إنني أكره رؤية أبواي في انتظار مخيف؟.

تأتي هذه المخلوقة فتنام مكانك بصورتك تمامًا ثم تأخذك بسحرها الشيطاني إلى الڤيلا بعدما تخفيك ثم تعيد تمثيل المشهد كل كابوس، وعندما تقاومين حد أنك تقتربين من قراءة الرسالة تعيد حملك بسحرها إلى سريرك بطريقة تجعل كل من بجانبك لا يشعر بدخولها، وهذا يفسر سر تعب قدميك والتراب الذي عليهما أحيانًا من أثر الطريق، هذه المخلوقة تأخذك مشيًا على القدمين ذهابًا وعودةً.

ماذا عن البقرة يا عم نبيل وهذا ال....

قاطعها عم نبيل:

البقرة هي عام قمري كامل، والقِطع دون أن تذكري عددها أُراهِن أنهم اثنتا عشرة قطعة بعدد الشهور، والثلاث قضمات هي اليوم الثالث وأنت

قلتِ لي قبل ذلك أنها القطعة الثالثة؛ فبذلك يكون هو الشهر الثالث بحسب الترتيب القمري للشهور.

استنتج الأب:

هذا يعني أن الرسالة يجب أن يتم تنفيذها في اليوم الثالث من الشهر الثالث القمري في تمام الساعة الثالثة قبل فجر ذلك اليوم؛ هذه هي الرؤيا والمستقبل الغامض.

قالت الأم وقد تشجَّع قلبها:

نعم؛ يبقى لنا مكان تنفيذ الرسالة مجهولًا.

استأنف عم نبيل:

المبنى الذي وصفته ساندي بدا غريبًا، لا أخفي عليكم عجزي عن الاستنتاج، لكنني لا أزال أرسم خريطة الأرض وأقوم ببعض الحسابات.

معنى هذا أننا سنلاقي قتالًا جديدًا في معركة جديدة يا عم نبيل ولن نخرج الآن بأي حل؟!.

نعم يا ساندي، هل أنت المقاتلة العنيدة فقط أم هنالك صفة جديدة يمكنني إضافتها؟.

مثل ماذا مثلًا؟.

مثل المسيطِرة.

علام سأسيطر برأيك؟!.

ألا تلاحظين أنك قد قمت بإحكام غلق النافذة في الكابوس الأخير أمام هجوم الكلاب؟.

أجابت ساندي وهي تنظر لعم نبيل:

نعم بالفعل!!!...

هذا يفسر أن لديكِ قدرة على التحكم في عقلك اللاواعي، وهذا غريب جدًّا، من المعروف أن النوم موتٌ آخر.

ترى برأيكَ علام تريد أن أسيطر في معركتي القادمة؟.

ليس أكثر من التقاط أكبر قدر من الصور للمبنى إياه في ذاكرتكِ.

لماذا أشعر بأنكَ بدأت تخفي عني شيئًا؟!!.

لالالالا، لا شيء يا ساندي.

نبرات صوتك تخبرني أنك تخفي أمرًا يا عم نبيل.

حسنًا، لن أخبرك بما أخفيه لكن يجب أن تثقي بي.

أثق بك، لكن من حقي أن أطَّلع على ما يدور ببالك.

لا يا ساندي، ليس كل ما نملكه نستحقه، ولا تزال ترن في أذني الجملة التي قلتيها لأمك بأننا نبحر بمركب الثقة في محيط من الرعب.

حسنًا يا عم نبيل، الآن نحن جيش كبير بإيماننا بالله.

لا إله إلا الله.

ومن باب الفضول جعل عم نبيل ساندي تقوم بتمثيل الحلم؛ ربما يريد أن يقوِّي قلب أمها وأن يلقي بها في قلب الحدث.

وفي منتصف تمثيل ساندي للكابوس في مختلف أنحاء الڤيلا شعر عم نبيل بارتعاب الأم بشكل أقرب للشلل؛ فأمر بوقف المشهد، ثم تجول يمينًا ويسارًا في مختلف الزوايا.

الڤيلا الآن آمنة لا تقلقي يا حنان.

بدا على حنان أنها لم تقتنع بكلام زوجها وأخذت تبحث عن زجاجة مياه معدنية لتشرب من حقيبتها وعيناها كادتا أن تخرجا منها وهي تحدِّق داخل الغرفة على السرير إياه، لكنها لم تشرب واستغلَّت اندماج الثلاثة بالحديث وأخرجت الهاتف والتقطت لعم نبيل صورة بعد أن كتمت صوت الكاميرا ثم شربت وعادت للحوار الذي كان قد انتهى على ثلاث مهام.

الأولى: أن يتقن الوالدان تمثيل الدور رغم علمهما أنها ليست ساندي وإنما المخلوقة.

الثانية: محاولة ساندي ركوب الكابوس والتحكم في مجريات الأمور لأنها تمتلك هذه الموهبة الغريبة.

الثالثة: أن تجمع ساندي أثناء الكابوس أكبر قدر من الصور للمبنى إياه أو موقعه من خريطة الأرض أو أي رمز جديد يمكنها التقاطه.

قطْع الاتصال الذي كان يحدث أحيانًا بين ساندي وأصدقائها أو الجيران منعًا لتوريط آخرين في دائرة الخطر.

الرابعة: أيُّ إخلال بواحدة من هذه المهام قد يعرض الجميع لخطر أقل ما فيه هو الموت.

ألقى نظرة على قفل باب البدروم وقفل الباب المؤدي للدور الثاني وتأكد أنها مغلقان، لاحظ أن مسرح الأحداث كله ينحصر في الدور الأول العلوي، عاد يلقي نظرة على الأسرة فوجد حنان لا تزال شبه متجمدة؛ فاكتفى بما جمع من ملاحظات، وأمر الجميع بسرعة الخروج..

تنفَّسَت حنان الصعداء بعد أن التقطَت لعم نبيل صورة وقالت لنفسها:

البرَكة من الله لكن لا مانع أن تكون في الأولياء من عباده.

.. وفي الطريق حيث يوصل عبد الرحمن عم نبيل إلى بيته بقرية المشروع كانت ساندي على الكرسي الخلفي مع عم نبيل الذي قال لها بصوت خافِت:

حي كفر عبده هجره السكان، كل الڤيلات مظلمة، ألا تلاحظين أنه لم يقابلنا أحد ولا حتى سيارة ولا في أي مكان توجد سيارات؟.

عندك حق، لقد كانت السيارات تركن هنا صف ثانٍ، والطريق الآن مهجور وموحش؛ المكان بات مرعبًا!!.

وقبل خروجهم إلى شارع أبي قير الرئيسي كان عم نبيل يحاول أن يلاحظ أي علامة على أي شيء، لكن بدا مسرح الأحداث غامضًا؛ تحول كفر عبده ذلك الحي الشديد الرقي إلى خرابة كبيرة وليل مرعب وكلاب ضالة ثم قال لساندي التي كانت تجلس بجانبه على المقعد الخلفي:

ألا تلاحظين أن الكلاب لا تهاجمك يا ساندي؟.

لأنني منطقيًّا لست في الحلم!.

لستِ في الحلم الآن ولكنك تأتين هنا في الحلم حين تنامين.

ثم التفت للزجاج الخلفي للسيارة وهو يحدق:

وبعض الكلاب تجري وراء السيارة وكأنها تحرسها!!.

الأمر شديد الضبابية ولا شيء يبدو واضحًا.

عرض عليهم عبد الرحمن الجلوس في أي كافيه لكن اعترض عم نبيل بأدب:

لا يا عبد الرحمن عد للخلف قليلا واسلك الطريق المتجه إلى بيتي في قرية المشروع، سنعود لاجتماع مغلق.

أحست حنان أن هذا الاجتماع سيكون عليها؛ نتيجة لارتياب عم نبيل فيها وفي درجة تحمُّلها.

سمع عبد الرحمن رجاء عم نبيل لهم بالتوجه إلى معه إلى بيته بالقرية كأنه أمر عسكري بعدما سلم نفسه له رغم أنه كان يحمل هَم نظرة الناس أثناء دخوله بالسيارة من مدخل القرية، في الريف الجميع هناك يأخذ مقاسات أحذية المارين وسراويلهم، ينظر إليك من أسفلك لأعلاك؛ لا سيما إن كنت غريبًا أو مختلفًا.

.. وصلوا إلى قرية المشروع من الطريق الدائري المظلم، لكنه مر من أمام القهوة التي يجلس عليها العاطلون بسرعة قبل أن ينال قدرًا من نظراتهم.

تناولت الأسرة لقمة خفيفة أمام إصرار عم نبيل وإلحاحه عليهم ثم فنجان من القهوة.

الرجل الكريم كان يحاول تلطيف الأجواء بقدر المستطاع وفجأة..

بدأ عم نبيل الحديث كأنه زعيم أمة قبل ساعة الصفر أمام الجنود:

بالتأكيد لن تبقى ساندي مستيقظة، لا بد أنها ستنام شِئنا أم أبَينا، لكن علينا أن نلعب هذه المرة باحتراف؛ ونركب عجلة القيادة.

كيف؟.

كنت على أية حال يا حنان سأوجّه حديثي إليكِ.

تفضَّل.

الآن أصبحتِ تعلمين أن ساندي ليست هي التي ستحاولين إيقاظها هذه المرة، لكن يجب أن تظل هذه المخلوقة تشعر بأنه لم يتم كشْفها، ولكي يتم هذا الأمر لابد أن تتقني الدور كأنها ساندي بالفعل، وبالطبع كذلك زوجك عبد الرحمن.

لا أدري كيف ستدور الأمور لكن...

وإن كان الأمر يتعلق بحياة ابنتك أو موتها ماذا ستقولين؟.

أقول إنني سأفعل ما يجب عليَّ؛ اطمئنوا.

لن أخفي قلقي منك يا حنان، ليس من قلة ثقة وإنما المسئولية كبيرة، ولا تزال أمامك الفرصة للانسحاب والذهاب فترة عند أي أحد من أقاربك، أنت الممثلة وأنت أيضًا لجنة التحكيم وصاحبة القرار لقيامك بالدور؛ عدم نجاحك في القيام بالدور سيسبب كارثة و..

قاطعته حنان بثبات بالغ:

أنا أُم يا عم نبيل وأقل كلمة تُقال إنني من الممكن أن أضع نفسي في فم تمساح لكي تسبح ابنتي إلى الشاطئ..

عاد وقاطعها عم نبيل في أدب بالغ:

لا يتعلق الأمر بالعواطف أحيانًا إنما بالذي نستطيع أن نقدمه؛ والذي ينزف لا يحتاج لمن يصرخ بقدر حاجته لمن يوقف النزيف.

ابتلعت حنان ريقَها وقررت أن تظل ثابتة مهما كلَّفها الثبات؛ وكأن عم نبيل كان ينتظر هذه الدرجة من الثبات ليقول لها ولزوجها الخبر الصادم:

هذه المخلوقة من خلال تحليلي للكابوس لديها القدرة على تنويم الذين تشعر أنهم يقفون في طريقها إلى ساندي ثم إعدامهم شنقًا وإخفاء جثثهم، والحل الوحيد للنجاة منها هو ألا تتمكن من رؤية ملامحنا ونحن في حالة خوف شديد.

لا تزال حنان على ثباتها بينما هو ينظر إليها ليرى مدى استعدادها، لكن ما إن تجاوزها حتى دار برأسها في هذه اللحظة مشاهد الرعب المحتملة، وأيضًا لم تنسَ ذلك الذي كان قد بدا على وجه عم نبيل حينما كانت ساندي تصف له شكَل المخلوقة، ثم قالت وكأنها تعلَّقت بشيء:

أنت رجل مبروك، لا يمكننا أن نخاف بوجودك.

انتفض عم نبيل من موضع جلوسه على الكنبة وقال: نحن لا نخاف إلا إذا كنا على يقين بأمان الله لا بوجود عبد مثلي لا حول له ولا قوة، استغفري الله يا حنان!!.

استفهمت حنان بتعجب شديد:

لماذا ذهبتَ بنا إلى الڤيلا اللعينة في هذا الوقت من الليل؛ وكأنك كنت تريد إرعابنا!!.

لم أقصد إلا مؤازرة ساندي والدخول إلى عقلها اللاواعي كي تعرف أنها ليست وحيدة.

.. عادت الأسرة إلى البيت، وعاد عم نبيل بنصف عقل لزوجته التي باتت مشغولة عليه، شوارع كفر عبده خالية إلا من الكلاب الضالة، جيران ساندي بعضهم هجروا بيوتهم وحدائقهم التي بارت ولم يعد أحد يجرؤ على شرائها ولو بدون مقابل، استفحلَت المحنة، حتى أن وظيفة عبد الرحمن أمست في خطر.

باتت وسائل الإعلام تزرع كاميراتها في شوارع كفر عبده وفي محيط الڤيلا لنقل كل جديد مثل وجود آثار أقدام بدون أن ترصد الكاميرا أجسامًا تمشي، باب الڤيلا يتم فتحه وغلقه بدون رصد أجسام تدخل أو تخرج.

امتلأت مصر بالخوف كلها، لكن كان للإسكندرية والبحيرة النصيب الأكبر لا سيما في محيط مقابر كوم أبِيس التي كانت قد دُفنت فيها ملك ابنة خالة ساندي بعد أن تردد اسمها في وسائل الإعلام.

ربما كانت ساندي قد فضفضت لإحدى صديقاتها مرة، وربما وسائل الإعلام أصبحت مثل مافيا التجسس لحصد صور وفيديوهات حصرية وجذب أصحاب الإعلانات ونسب المشاهدة.

العالم يتابع عن شغف رهيب بالأمر ولا سيما وسائل الإعلام الأجنبية بأقمارها الاصطناعية التي ترصد بالفعل ظواهر غريبة في محيط الڤيلا وزوايا مختلفة لهجوم الكلاب المسعورة.

عرفوا أنها ساندي!!.

استضافة بعض الشخصيات الشهيرة في علم النفس وغيرها من مجالات الطب ومشايخ الدين والقساوسة وبعض المقربين من ساندي أو مَن ادّعوا القرابة والذين اعتبروها فرصة للشهرة.

اتصال وارد من زوج ساندي لها.

أغلقت ساندي في وجهه الاتصال.

جاء حماد إلى زوجته ساندي وطرق الباب فوجده حماه عبد الرحمن مفزوعًا فقال له:

انجُ بعمرك يا بني، أنت لا تزال زوجها لا تقلق، لكن الخطر محدق والأمر جد خطير، واعلم أنني لا أطردك ولكنني أخاف عليك.

لكن لكن لكن من حقي أن أن أقف بجانب زززوجتي.

تماسَك يا زوج ابنتي وعُد أدراجك كما جئت، أنا أعلم أنك تحبها وأن بقاءها على ذمتك حتى الآن بالنسبة لرجل مثلك يعتبر شبه انتحار وهذه شجاعة أقدّرها فيك.

ماذا تقصد ب «رجل مثلي»، هل أبدو لك خائفًا؟!.

لا يا حماد حاشا لله أن أتهمك بالخوف، أنت يا حماد فقط مذعور، اذهب.

ذهب حماد كأنه لا يريد الذهاب ولكن عندما نظر حماه عبد الرحمن من الشباك عليه ليرى إن كان بأمان، وجده يجري في هلع كأنه فأر يفر من سبعين كلب.

الشارع خالٍ إلا من الكلاب وبعض الحشرات وبعض القمامة التي لم يرفعها أحد!!.

جاء الليل، قاومت ساندي حتى ارتمت رغمًا عنها على السرير نائمة تمامًا.

اتصال مفاجئ على تليفون البيت الأرضي جعل حنان تسقط من دق الجرس، لكنها تماسكت وزحفت ورفعت السمّاعة.

أخبرها دكتور معمل التحاليل بتطابق صورة الدم الذي التقطه عم نبيل من أرضية مطبخ القيلا مع دم ابنتها الحقيقي.

بهذا لم يعد كلام عم نبيل محض احتمال كما كانت تظن حنان وإنما علميًّا هذه النائمة ليست ابنتي وإنما ابنتي الآن في القيلا.

حنان تتماسك بكل ما أوتيت من مشاعر أمومة وتشجع نفسها «**تسابقْتُ هذا الصباح بيني وبيني فتفوقت عليَّ وحصلت على المركز الأول مكرر**».

ليل أسود جديد.

ساندي غارقة في النوم العميق.

عرق شديد.

بدأت عروقها في الانتفاخ باللون الأزرق.

إنها مراسم الكابوس القبيح.

الأب والأم يقومان بالدور على الوجه الأكمل.

شيء غريب لم يحدث من قبل!!، شخص ما يدق الباب!!!.

نظرت حنان لزوجها وهي تدّعي أنها لا تهتم وسألته:

ستفتح أم أفتح أنا؟.

أجاب: كما تشائين يا حنان.

فكرت حنان قليلًا، وكأنها تقول أخاف أن يتركني معها وحدي، ولو ذهبت لأفتح أخاف أن تكون هي من بالباب، فتسقطني الصدمة ميتة، لا سيما وأننا نسكن وحدنا في الشارع، استجمعت قواها وقالت بلا اهتمام: اذهب وافتح يا عبد الرحمن لعلها إحدى صديقات ابنتنا جاءت تطمئن.

وما إن خرج الأب لفتح الباب حتى أخرجت حنان الهاتف وكانت قد وضعت صورة عم نبيل على الشاشة الرئيسية ثم وجَّهت شاشة الهاتف تجاه النائمة بعد أن ثبَّتته على دُرج الدولاب المقابل كنوع من البركة والحماية على حد فهمها، ثم استدارت للنائمة وكأنها تدعي عدم الاهتمام.

فتحت النائمة عينيها الواسعتين المرعبتين ونظرت إلى الصورة في غضب، وقبل أن تستدير حنان كانت قد عادت لغلق عينها.

نظر عبد الرحمن من العين السحرية ليرى مَن الطارق!!!

لكنه عاد وعلى وجهه كميات هائلة من العرق.

وبتلقائية شديدة في التمثيل سألته حنان وهي تخفي الهاتف:

من كان بالباب؟.

كانت صديقة حنان وقلت لها إنها نائمة ومتعبة قليلًا فاعتذرَت وانصرفت بهدوء.

غريبة أن تأتيها صديقتها في هذا الوقت!.

أمور بنات يا حنان، لا عليكِ.

.. وإلى القيلا في هذه اللحظات العميقة من عتمة كفر عبده وسعار كلابها كان الكابوس المعتاد إلا من أمر مريب.

المخلوقة لم تعد تمسك حبلًا، إنها تقبض على مسمارين طويلين من الحديد وتحاول غرزهما في عيني ساندي، لكن المقاتلة العنيدة كانت تقاوم وتفلت، وفي نفس الوقت تلتقط للمبنى مزيدًا من الصور في ذاكرتها.

لاحظ عبد الرحمن لأول مرة انفتاح باب البيت وحده، ولكنه لم يُظهر اهتمامًا وكأنه لم يلاحظ.

استيقظَت ساندي، على وجهها بعض آثار غرز المسامير التي كانت تقصد عينيها.

لم يصحبها أبوها إلى أي مستشفى.

كانت كل الإسعافات مجهزة في البيت.

لم تشعر ساندي بالألم أثناء قيام أبيها بتنظيف جروح وجهها؛ ثمة ألم كبير لا يجعلك فقط تشعر بأيَّةِ آلامٍ بعده وإنما لا يجعلك تشعر بأي شيء.

انتهى الجميع من صلاة الفجر ثم بدأ الهدوء وبدأ العناق الحار والدموع، لقد كانت ليلة عصيبة!!.

وكأن المحصول كان وفيرًا كانت الراحة تسيطر على وجه ساندي، ويبدو أن الأم قد بدأت تشعر بالراحة أيضًا، ربما صورة عم نبيل المبروك هي السبب في هذه الطمأنينة، كان عبد الرحمن يشعر بالدهشة من منظر هذه الراحة التي على وجه زوجته.

بعد ظهور الشمس انطلق عبد الرحمن بسيارته ومعه الأسرة إلى عم مبروك في قرية المشروع.

لم يشأ عبد الرحمن أن يخبر زوجته أن التي كانت تطرق الباب هي صديقة ساندي التي توفيت في العام الماضي في حادث حريق القطار؛ كي لا يزيد من رعبها، لكنه قتل فضوله عن سر راحة زوجته بالصمت وظل يقود في طريقه إلى قرية عم نبيل.

الصدمة الكبرى!!

وسائل إعلام تقف على أول الشارع.

تراجع عبد الرحمن بالسيارة قليلًا قبل أن يلاحظه أحد ثم ركن ونزل يسأل عما يجري فقيل له:

عم نبيل اختفى منذ فجر أمس ولا أحد يعلم هل هو ميت أم على قيد الحياة، ووسائل الإعلام تقطع بأن لاختفائه علاقة بالمجنونة وحكايتها المعروفة إعلاميًا بثيلا كفر عبده، من أين أنت يا أستاذ؟.

أنا من رشدي.

هل أنت من بلدها؟.

لالا نهائيًا بل أنا من مساكن ال.. شكرًا لك سلام عليكم.

!!!.

يا جماعة؛ أسرعوا؛ أظن أن هذا هو أبو المجنونة دخل من هذا الشارع.

انطلق عبد الرحمن بسيارته وسط مطاردة الكاميرات له.

الصور: صورة للوحة السيارة، صورة لوجه عبد الرحمن الذي بدا عليه الهلع حين كان يلتفت للخلف أثناء انطلاقه بعد أن كشف الشاب شخصيته.

في السيارة: أريد أن أعترف لكما بشيء.

ماذا يا حنان؟.

ربما أكون أنا المسئولة عما حدث لعم نبيل من اختفاء.

ماذا يا أمي؟!!.

ماذا تقولين؟!، أظن أننا بحاجة لأن نركن هنا على جانب الطريق.

.. بعد أن ركن عبد الرحمن بسيارته على جانب الطريق الدائري نزلت حنان وهي تبكي، ثم احتضنتها ابنتها بهدوء حذر ووقف عبد الرحمن يراقب ماذا ستقول؛ فقالت:

لقد قمت بالتقاط صورة لعم نبيل على هاتفي كنوعٍ من البركة ليلة كان معنا في الڤيلا، وحين ذهبْتَ تفتح الباب يا عبد الرحمن لِصديقة ساندي كنت مرتعبة جدًّا ففتحت الهاتف على صورة عم نبيل وقلت إنها ستمنع عني شر هذه المخلوقة.

كيف علمتِ يا أمي أنها شاهدت صورته، أنت ربما تبالغين في تحميل نفسك المسئولية.

لقد رأيت انفتاح عينيها المرعبتين في مرآة دولابك وهي تحدق نحو الصورة في غضب مريع، كأنها هاربة من جهنم، لكنني كنت أحاول القيام بدوري، أنا أم فاااشلة!!.

قام عبد الرحمن باحتضان زوجته الباكية بعمقٍ وقال لها:

لا تحمِّلي نفسك مسئولية شيء؛ الأمر بالفعل يرتقي إلى مستوى الأهوال وأكبر من أن يتحمله بشر.

شعرت ساندي عندما شاهدت منظر والديها أن وجودها أصبح شؤم على كل من تعرفه، فالتفت الأب الجميل في حنان بالغ وحكمة تبدو من نبرة صوته وملامح وجهه:

لا يا ابنتي، ليس الأمر كما تفكرين، الله اختارك لشيء، صحيح أننا لا نعلمه لكن عدم اطّلاعنا على الغيب لا يعني أن نفقد إيماننا برب العالمين!!.

نزلت الكلمات على قلب ساندي كانفجار ماء زمزم يوم كانت الأرض صحراء ثم فاجأها بقوله حينما عادوا إلى السيارة:

كنتِ عازمة على الانتحار منذ قليل؟.

يا للهول يا أبتاه؛ هل تشعر بي إلى هذه الدرجة؟!.

وبعدها فكرْتِ في الهروب لكي تحميني أنا وأمكِ وتواجهي الشر وحدكِ؟.

يا ربي؟!.

اعلمي أن انتحارك كفر برب العالمين.

أعوذ بالله يا أبي!!.

كما يجب أن تعلمي أن هروبك قد يكون حكمًا بالموت علينا لأن هذه المخلوقة إن لم تجدكِ لن ترحمنا.

آسفة يا أبي.

ثم تنهد وهو ينظر إليهما:

على فرض أن أسوأ الظروف هي المدة التي سنبقى فيها على قيد الحياة؛ فتعالوا نخيّب أمل المستحيل ونعيش كما لو أن البحر أراد أن يغرقنا فشربناه باعتباره زجاجة خمر صنعها طفل من أطفال الشوارع من بقايا حبات العنب الفاسد الذي يجده في القمامة ثم يضيف إليه كوب من بول أخيه الصغير.

ضحكوا ضحكًا معجونًا بالنحيب وقالت ساندي:

تعرف كيف تضحكنا رغم طوفان الحزن يا أبتاه.

استأنف أبوها يقول:

الناس يموتون إذا قرر الله أن يموتوا لكنهم لا يعيشون جميعهم إذا قرر الله أن يكونوا على قيد الحياة.

فقالت زوجته وهي تخفف من حدة الحوار:

تتكلم بعمق وأنا كما تعلم أنني بالأساس لا أفهم معظم الكلام السطحي.

ابتسم ثم تنهد وقال وهو يلتفت لساندي: لماذا غالبًا لا ينجح النمر الجائع في اللحاق بالغزال رغم أنه يفوق الغزال في القوة والسرعة، ذلك أن النمر يجري بدافع الحصول على وجبة طعام أما الغزال فيهرب بدافع البقاء على قيد الحياة، برأيك أي الدافعين أشد قوة؟.

قالت حنان بدلالٍ:

أحيانًا يلحق النمر بالغزال أيها العميق.

يسقط الغزال فريسة فقط عندما يهدد الجوع النمر بالهلاك.

ابتسمت ساندي وقالت تداعب أمها:

لقد صار وجهكِ مُحرَجًا أمام هذا العميق.

.. كان عبد الرحمن يحاول أن يثبت ابنته وأن يضمن وجوده بجانبها في المعركة ثم استأنف يقول لها:

في الشطرنج قد يموت الوزير أو تموت كل العساكر وكثير من الضحايا لكن يجب أن يبقى الملك.

سالت دموع الجميلة ساندي فجأةً بحزن عارم.

مجرد تخيلها أنها يتيمة أصابها بفاجعة، ولولا حرصها أن تلاحظ أمها لكان لانهيارها مشهد عظيم.

ثم قالت حنان وقد بدا العمق غامضًا أمامها:

لا تتكلموا بالألغاز؛ أريد أن أفهم ماذا قلتَ ولماذا هي تبكي لأول مرة بهذا الحزن؟!.

فحاول عبد الرحمن تغيير الموضوع بذكاء فقال لزوجته:

ما رأيك أن تلتقطي صورةً للمرأة التي كانت تضايقك في السوق يا حنان؟!.

ضحكت فجأة وضحكت ابنتها ثم ضحك الأب وقالت له:

لو كان لي أن ألتقط صورةً عن عمد لالتقطتها لأمك لكن للأسف لقد ماتت قبل أن أنتقم.

حرام عليكِ يا حنان؛ قلبك أسود!.

كانت تحبكَ جدًّا وكانت تغار مني وتطرق الباب في الوقت الذي أنفرد بكَ فيه وكأنها كانت تعرف موعد ال....

أي موعد يا أمي؟.

ضحك الجميع واستطاع عبد الرحمن أن يشتت عقل زوجته ويهرب من سؤالها عن لوحة الشطرنج وفي أثناء الطريق قال لهما:

تعالوا نتفق جميعًا ألّا نأخذ الحياة على محمل الجد، خمسون عامًا وأنا شديد الصرامة شديد الحزم شديد ال...

قاطعته زوجته قائلةً:

شديد الحرارة.

ضحكوا ثم اقترحت حنان:

ما رأيكما أن نتوجه إلى مطعم حسني نتناول كباب ثم نذهب لنسهر معًا في كازينو الشاطبي على البحر ونسهر هناك حتى الصباح؟.

لاقت الفكرة استحسان الجميع؛ لعل الليلة تمر دون أن يغلبها النوم.

أجمل ما كان في مشهد الأكل أن الجميع كان يقوم بدور الجائع المفتوحة شهيته ليشارك في تخفيف حدة الألم.

كان منظر البحر من نافذة الكازينو الزجاجية أكثر من ساحر لكن ماذا إذا كان الرعب ينتظرك؟.

ما طعم ذلك الشيء الذي يقولون إنه حلو حين يقدّمونه للمحكوم عليه بالإعدام قبل مراسم الشنق بعدة أنفاس؟!.

قالت ساندي بعد أن أخذت أبيها لزاوية بعيدة:

لماذا تقاوم الحزن؛ إنه مخلوقٌ رائع؛ اسمح بكل كبريائك أن تجري على خد الورد الدموع.

فبكى كثيرًا جدًّا حتى ابتسم !!.

عند شروق الشمس توجَّهوا إلى شاطئ جليم.

بدا على ساندي تحت الشمس الإرهاق الشديد؛ أثر السهر ومقاومة شبح النوم؛ قرروا العودة إلى البيت وقالت حنان:

أريد أن أشتري الأخبار من هذا الكشك، ما رأيك لو تركن هنا وتشتريه لنا لنعرف ماذا يقولون اليوم عنا.

اشترى عبد الرحمن نسخة من كل الصحف تقريبًا ثم استأنف السير لكنه ركن فجأة وعاد يقول لساندي:

لا تأخذي الحياة على محمل الجد أبدًا» عاهديني يا ساندي.

ودخل شارعهم الخالي من البشر.

هجر السكان بيوتهم بسبب الرعب.

كان الأب يحاول أن يخفف عن ابنته ذلك الضغط الذي لا يتحمله جيش من الرجال، قال:

حتى عامل النظافة لم يعد يدخل الشارع.

قالت حنان:

بالأساس لا توجد قمامة يا عبد الرحمن.

فسأل ساندي ليأخذها من شرودها:

لماذا لا توجد قمامة في الأماكن التي لا يوجد فيها البشر؟.

أجابت ساندي:

تريد أن تقنعني أن الشارع هكذا أجمل بدون السكان يا أبي؟.

ثم دخلوا البيت؛ ثم ليلة عصيبة أخرى كانت في الانتظار.

كابوس أشد قبحًا وإجرامًا؛ تعرضَت فيه ساندي لما يشبه المجزرة البشرية!!.

وفي فجر يوم الأحد غرة شهر ربيع أول.

أين أبي يا أمي؟!.

لا بد أنه في غرفته يستريح بعد ليلة أمسِ، لكن لا تقلقي يا ساندي لقد كنتُ ممثلة بارعة وأستحق أوسكار أحسن ممثلة.

لا يا أمي أبي ليس في غرفته، كما أن الجرائد كلها في نفس المكان وعليها الشّيكولاتة التي اشتراها لنا أمس، يا للهول يا أمي؛ إن الصفحة الرئيسية لجريدة اليوم السابع عليها صورة أبي التي ربما التقطوها له أمس بالقرب من بيت عم نبيل قبل أن نهرب بسيارتنا من قرية المشروع، ثم انظري هذه لوحة سيارتنا عليها نفس الأرقام.

راحت حنان تفتش عن زوجها في كل مكان في الشقة وهي تصرخ وتلطم ثم ألقت نظرة من الشباك على الشارع فوجدت السيارة متفحمة تمامًا!!!.

انهارت ساندي وسقطت، لا أحد مع هاتين المنكوبتين لينجدهما من فوضى وهيستيريا صدمة فقْد عبد الرحمن.

لفتت انتباه ساندي ملامح أبيها المرتعبة في الصورة فتذكّرت كلام عم نبيل أن هذه المخلوقة لها القدرة على تنويم أي شخص وأخذِه وقتلِه وإخفاء جثته، لا سيما بعد اختفاء عم نبيل نفسه!!.

لا طعام في البيت بمرور الوقت.

الخروج شبه مستحيل.

أصابهما التعب، جفت الدموع، تذكرت الأم حديث الشطرنج إياه وقالت وكأنها تعلم مصيرها:

هل من الممكن يا صاصا أن ينتصر الملك وحده أم أنه لا بد أن يحتاج لقطعة واحدة على الأقل بجانبه.

قالت ساندي وهي تتلعثم وتحاول أن تركِّب جملةً مفيدة ولو بالكذب:

الملك يحتاج لقطعة واحدة على الأقل لكنه لا ينتصر وحده.

لا إله إلا الله.

اطمئني يا أمي لن أدعها تمسك بسوء.

رائحة موت وصوت سكوت مقابر يا ساندي!!.

هيا بنا يا أمي لنصلي لله رب العالمين، لم يعد أمامنا غير الله.

لم تتحرك الأم!!.

أمي!!.

بعد نهار حافل بالسواد الحالك، اتصلت ساندي بالإسعاف لنقل جثمان أمها إلى المشرحة والبدء في مراسم الدفن.

لم يجرؤ أحد على المجيء من طاقم الإسعاف.

ماذا أفعل يألله!!.

حاولت أن تحمل جثمان أمها لكنها لم تستطع.

الجثمان ثقيل عليها جدًّا.

سحبَت الجثمان جانبًا وقامت بتغطيته لترى ماذا بمقدورها أن تفعل.

لم يبقَ في البيت سوى ساندي وذلك الجثمان.

ساندي وحيدة بالكمال والتمام.

صوت الهاتف يدق: البقاء لله يا حبيبتي.

لا تحاول مرة ثانية، لا مزيد من الموتى في الحكاية يا....، حتى أنني خوفًا عليك لن أذكر اسمك، طلِّقني واذهب لحال سبيلك، الموت يحاصرني والفجائع، اذهب أرجوك.

الموت سيأتي في موعده يا حبيبتي، بدلًا من أن أموت من الجُبن، دعيني أموت رجلًا.

ثق تمامًا أن بقائي على ذمتك حتى الآن رجولة منك، أي عاقل غيرك كان عليه أن ينجو بنفسه، كانت تحدث بيننا الخلافات كأي شريكين لكن صدقني لم أفكر يومًا في التخلي عنك.

أنا أعلم أنك لم تحبيني يومًا وأنني وغد غيور ولكن...

لم يعد للأمر أهمية، اذهب؛ إنها تتصيد الخائفين من حولي؛ وأنت كما تعلم...

ابني في بطنكِ.

ابنكَ سيموت آجلًا أو عاجلًا، أنا أنزف كل يوم، لا أعلم كيف بقي كل هذا يدق قلبه في بطني!!.

حاولي أن..

اذهب أرجوك أحتاج أن أقاتل وأنا مطمئنةٌ أنكَ في أمان.

تقولين إنكِ خائفة عليَّ يا ساندي؟!.

ولماذا لا أخاف عليك، أتظنني جاحدةً أيها الأحمق؟.

هذا يكفيني ويكفي أن أقاتل معكِ.

تبًا لك!!.

ماذا؟!.

قلت لكَ إن المعركة لا تحتاج أكثر من المَلك.

أي مَلك؟!.

وجود أي شخص معي سيجعلني أخسر حياتي، هل تريد أن أخسر حياتي؟!.

لا.

إذًا أغلق الهاتف اللعين؛ لا أريد أية اتصالات مرة أخرى!!.

ساندي وحيدة.

خلعت ملابسها بالكامل وهي تقول لنفسها: أيتها الجميلة إن شجرة الورد تحتاج إلى الكثير من الشوك.

راحت تضحك وتغني بجنون وكأن شيئًا لم يكن، وتذكرت وصية أبيها «لا تأخذي الحياة على محمل الجد».

فتحت على جسدها شلال المياه في الحمام.

ارتدت بنطلونًا قصيرًا وحمالات الصدر.

أحضرت ورقة وقلمًا وراحت ترسم ذلك المبنى الذي في الرؤيا بقدر ما تتذكر.

الباب اللعين يدق بشدة.

انتفضت تجري لتنظر من العين السحرية، نظرت في يده لعله جاء لها بطعام فلم تجد وقالت:

قلت لك اذهب.

افتحي الباب؛ لن أذهب أريد أن...

أنت ستتسبب في قتلي أيها الأحمق.

ليس مهمًا أن تموتي لأن وجودي لن يقدم أو يؤخر مواعيد موت أحد، المهم أن تعرفي أنني رجل.

بالطبع أنت رجل!!.

وماذا يثبت أنني رجل؟!.

ابتسمت ساندي رغم الألم الرهيب وفتحت الباب وعانقته عناق اليتامى ثم قالت:

أنت رجل وسيد الرجال وأنت على حق أنا لم أحبك قبل الآن.

وتبادلا النظرات العميقة كمراهقَين أغرقهما الحب وقالت:

لا شيء يفزع الأنثى غير أنه لا يوجد في حياتها حصان عنيد؛ ولو كان معها ستتنزّل على قلبها من السماء الطمأنينة ولو قيل إن الشمس عمودية على رءوس العالمين وأن القيامة في مكانٍ غير بعيد.

فسألها:

أنت تحبينني إذًا، ثقي تمامًا أنني أحب هذه التي تطاردكِ، دعيني أنتظر مجيئها لأشكرها.

الأمر لا يحتمل المزح يا حماد!!.

أقسم أنني لا أمزح أريد أن أنتظرها لأمزقها سبعين ألف قطعة أمام عينيك.

ستقتلنا.

لا يهم.

لا يهمك أن تقتلني مثلًا.

بالأساس نحن مكتوب....

أيها الغبي لا يتعلق الأمر بحياتي إنما برسالة مات من أجلها كثيرون؛ أُفَضِّلُ أن أموت مقتولًا من الجوع وأنا أحلم، خير من أن أعيش سبعين ألف عامٍ كخرتيت لعينٍ أمامي كومة من اللحم ولا يعلم الناس عني شيئًا.

أي رسالة هذه يا ساندي؟!.

هذا الشر الرهيب على تفسير عم نبيل لا يأتي إلا ليحاول أن يمنع خيرًا عظيمًا يتوقع حدوثه، وكان من الممكن ألا أهتم بأي رسائل أو أي خير أيًّا كان، أنت تعرفني؛ أنا امرأة مجنونة بالانفلات والانفتاح على ملذات الدنيا، لكن ليس قبل أن يختفي أبي وتموت أمي ويختفي عم نبيل، لا بد أن أموت على ما ماتوا عليه لأجل أرواحهم الغالية.

لم ينتبه لكلمة واحدة مما قالته؛ عيناه في مكان آخر...

ألقى نظرة أخيرة على جسدها الطويل المثير وأشيائها المنحوتة وبطنها المنتفخة بابنه وكأنه الوداع الأخير ثم شدّها إلى الداخل.

وتحت إلحاح عنيف منه اضطرت للدخول، لكن حينما كانت تستعد له كان يتحرك هنا وهناك مثل أسد شجاع داخل البيت.

لم يخيفه منظر جثمان أمها المغطى في زاوية الصالة.

شعرت ساندي برجولته لأول مرة؛ وكان الأمر لا يتعلق بأنها تحتاج وإنما بأنه يصهل هنا وهناك كحصانٍ أصابه جنون العشق.

عانقته مرة أخيرة عند الباب وهي عارية تمامًا ثم قالت:

يجب أن تذهب الآن.

ليس قبل أن تقولي ما تشعرين به.

أشعر بالجوع والله العظيم الجوع الشديد ليس في البيت شيء منذ يومين تقريبا لا شيء!!.

ساعدته في حمل جثمان أمها بعد أن ألقت بين عينيها قبلة الوداع.

ارتدت بنطلونها القصير وحمالات الصدر.

الأرض تستعد للظلام.

.. عادت إلى الجدار ساندي لتكمل الخريطة ورسم المبنى فلم تجد شيئًا؛ فقالت في شجاعة المقاتلين:

لقد بدأ الاحتفال مبكرًا أيتها اللعينة، ثم راحت ترسم تفاصل المبني حفرًا بسكين المطبخ على حائط في صالة الشقة عنادًا في المخلوقة التي بات من اليقين أنها الآن هنا.

رسمَت مبنى بدا لها كأنه علبه فوقها كرة كبيرة.

أوف، مجرد شخبطة ولم يتضح شيء.

صدمة كبرى!!.

العالم يتابع دقيقة بدقيقة في بث مباشر حصريًّا على القناة العالمية كل ما يحدث مع ساندي في بيتها.

كيف حدث هذا؟!.

الوغد في الوقت التي كانت فيه ساندي تستعد له في غرفة النوم بعد إلحاح منه، كان يزرع الكاميرات في كل مكان حسب أوامر القناة العالمية التي أعطته بالمقابل ١٠٠ مليون دولار أمريكي.

.. كانت ساندي تسكن في بيت أبيها المكون من عدة طوابق، وزوَّجها أبوها معه في البيت بعد أن تعثَّر خطيبها حماد آنذاك في الحصول على شقة تمليك تليق بها وكذلك ارتفاع الإيجارات وهو موظف في وزارة الخارجية.

اجتمعت تقريبًا كل الأسباب التي قد تجعل زوجها حماد يشعر بالنقص؛ بالإضافة إلى أن زوجته ساندي جميلة شديدة السحر وملفتة للعيون ولا يكاد يمر يوم دون أن تحدث مشكلة ويثور بسبب ملابسها أو تعقب الرجال لها حد المطاردة:

حينما أعود للبيت كل ما يشغلك هو الجنس وكل خوفك عليّ من الجنس حين أخرج؛ في البلاد التي ترتفع فيها درجة حرارة الحرمان؛ يجب ألا تخرج الأنثى إلا وتحت قميصها مسدس؛ كي تقتل كل من تشعر أنه يلهث.

كان أبوه الرجل المتدين قد اعترض على زواجه بساندي وكان يحذره من جمالها المثير بقوله:

ألا تعرف المَثَل القائل «من يتزوج امرأة جميلة جدًّا يحتاج لأكثر من عينين»؟؛ من باب الحرص افتح الباب ثم قم بإغلاق كل النوافذ ولا تسألني عن السبب؛ لا أحد يحرمك من النساء لكن ليس هذه المرأة بالذات.

وحاول حماد أن يقنعها على الأقل بتغيير شكل ملابسها لكنها اعترضت ووضعت ملابسها في كفة وارتباطها في كفة أخرى؛ فتراجع حماد لكن ظل أبوه غاضبًا وقال:

يقولون لك كن رجلًا ذكيًا؛ اخسر الحوار واكسب ضحكتها؛ هذا لا بأس به إن كان الأمر يتعلق بإصرارها على أن الشيكولاته السادة أحلى من الشيكولاتة بالبندق إنما إن كان الخلاف يتعلق بشيء له قيمة لا تخسر الحوار ولو جعلْتَها تبكي؛ احتفظ برجولتك وأي شيء بالمقابل لا مكان له إلا تحت قدميك.

وبالطبع خسر حماد الحوار مع أبيه؛ كان حادَّ الطباع جاف الحوار رغم ثقافته الدينية.

وبالإضافة إلى ذلك بات مؤخرًا يشعر أنَّ سكنه في بيت أبيها ينقص من رجولته كرجل اعتاد أن يكون حرًّا وتلك الجملة التي لا تزال تدوّي في أذنيه "تنقص كرامة الرجل بحجم ما تنفق المرأة عليه".

ضاق بها الأمر بعد جدال دار بينهما وطلبت منه الطلاق، فلا بقي مع زوجته ولا له مسكن يأوي إليه بعد أن باع أبوه شقتهم الوحيدة وسافر إلى السعودية للعمل كمحفِّظ للقرآن في إحدى الجمعيات.

شعرت زوجته ساندي وقتذاك بالشفقة عليه فتركته معها؛ تعايشت مع الأمر ككل الذين يتعايشون في مصر ولا سيما بعد ضغط أبيها عليها؛ فكانت تصرخ حينما تنفرد بنفسها وتقول:

يا أيها الحمقى الذين علمتمونا كيف نعامل الناس بكل هذه الحضارة وكل هذا الرقي، لماذا لم تعلمونا أنْ نعامل أنفسنا باحترام؟!.

مصر تقريبا كلها لا تعيش وإنما تتعايش الآن بسبب قسوة الظروف التي تفرق كل شاب عن فتاته التي يحبها وهكذا تبدأ العُقَد في الاشتباك فتتزوج من رجل جاهز وينتظر هو ليكوّن نفسه ثم يتزوج من فتاة لم يجهز حبيبها بعد.

لم يفكر حماد في قبول عرض القناة وإنما وافق وسال لعابه على المال الذي أعماه واشترى في الإسكندرية برجًا يطل على البحر مباشرةً ملاصق لفندق سيسيل في محطة الرمل، واستمرت ملذات الحياة..

لا يشتري الجرائد.

لا يتابع محطات التليفزيون.

لا يفتح الراديو.

خمور راقصات حفلات خاصة؛ لكن كلمات ساندي التي كانت دومًا تدفعه بعيدًا عنها كانت تطارده كطنين نحلٍ في أذنه الوسطى «ولو ذهبنا إلى وزارة الأوقاف وسألنا المفتي وقلنا له هل يجوز لامرأة بحجمي أن تكتفي برجل مثلك، لقال لي المفتي: يجوز لمثلكِ أن تتزوجي أربعةً من أمثاله بشرط أن تعدلي بينهم».

أدمن الخمر؛ لا يريد أن يؤنبه ضميره ذات يوم.

مجاملات.

أحد العاملين في الفندق أشفق على حماد من الخمر والنساء؛ فاقترب من أحد الذين يستغلون انهياره النفسي وقال له:

لن أقول لك لا تجامل ولا كل المفردات التي تندرج تحت هذا المعنى لكنني سأخبرك بالمعنى الحقيقي للمجاملة؛ إنها ترتقي إلى مرتبة الكراهية إذ تُضلِّل الذي أمامك وتجعله يحتفل بأنه يقف في الوحل.

فسبَّه ذلك النصاب حد أن العامل كسر له ذراعه.

ولأن داخل هذه الفنادق شبكة من المجرمين في زي أنيق؛ تم ترتيب موت هادئ لذلك العامل؛ وقبل أن يموت بتسريب غاز في غرفة مغلقة بعد أن تم تكتيفه قال له ذلك النصاب وهو يغلق الباب للمرة الأخيرة:

ضع بعض الأشياء الخشبية أو الزجاجية التي لا قيمة لها في مكانٍ مغلق معزول الصوت ذي خصوصية؛ وعندما تغضب بشدةٍ حدَّ أن يصيب عينيك

العمى؛ اهرب إلى ذلك المكان وبعد نصف ساعة اشكر الله على أن الذي تكسَّر يمكن تعويضه.

.. أجل؛ إن المال سحره غريب.

ربما كان جرحه الخاص عميقًا لا يمكن لعناق واحد مهما بلغت شدّته أن يشفى فجأة جرحًا ظل مفتوحًا لسنين كما لو أن المسيح مر عليه.

.. التقط البث المباشر أول ما التقط ساندي وهي عارية تمامًا، وحصدت القناة في الدقيقة الأولى نسبة مشاهدة لم تحدث في تاريخ البث الفضائي والالكتروني.

العالم الآن يتابع امرأة حبلى ترتدي بنطلون مثيرًا وحمالة صدر وهي ترسم على الحائط بالسكين وتطاردها مخلوقة سفلية متخفية من أجل تعطيل رسالة لا أحد يعلمها.

مهزلة واعتداء مهين على الإنسانية!!

القناة تنقل انفتاح الباب وحده واختفاء ساندي وعودتها فجر يوم الاثنين الثاني من شهر ربيع أول وسط بركة من الدماء وفي يدها حبل غليظ يشبه حبل الستائر؛ ثم دخلت تبحث في كل الأدراج؛ يبدو أنها كانت تبحث عن ماكينة لحلاقة الشَّعر!!.

الناس يحبون الفضائح ومشاهد الرعب لكن هذه المرة العالم يريد أن يقاتل مع الفتاة المنكوبة.

تدخَّلت الحكومة المصرية ووزارة الخارجية لوقف البث لكن الأمر خارج عن السيطرة قانونًا وبغير القانون.

غضب عارم من الشعب المصري رجاله والنساء الكبير والصغير مما فعله حماد بزوجته الحبلى الشبه عارية!!.

وقبل أن تصل إليه الأجهزة الأمنية كانت مجموعة من شباب الإسكندرية قد اقتحموا عليه شقته الفاخرة وربطوه في حامل إحدى الإشارات على طريق البحر ليعلنوا للعالم أنه ليس كل رجال مصر يبيعون نساءهم.

جاءت حملة من مباحث أمن الدولة.

حماد في السجن.

النائب العام قال في وجه محامي حماد:

لا يتعلق الأمر بالقانون يا سيادة المحامي وإنما بحماية حماد نفسه من غضب الشارع وأنت بالأساس ممنوع من الظهور لإشعارٍ آخر.

وأين سيادة الدولة، أشعر أن..

أنت لا تشعر أصلًا بشيء يا متر، المقابلة انتهت!!.

القناة تنقل صور ساندي الشاحبة من الجوع وقد مسحت المائدة ووضعت الأطباق فارغة وبجانبها كوب زجاجي فارغ وقالت:

بسم الله.

وراح المعلِّق يتهمها بالجنون، إنها تأكل لا شيء، وتقوم بحركات الأكل والشرب والمضغ وتلتهم لا شيء من الأطباق المملوءة بالفراغ، انتهت من الطعام وشربت الكوب الفارغ كله وسقطَت بعض القطرات الحقيقية على ذقنها فراحت تمسحها بيدها ثم قالت:

الحمد لله.

يا للهول الكاميرات ترصدها وهي تقص شعرها الطويل رأسها من جذوره؛ فظهرت في الصور الضفائر الغجرية كأنها قتيل.

العالم الآن يبكي الإنسانية!!

السماء تبكي.

الجبال تبكي.

بعض البشر يضحكون.

.. فجأة!!

عشرات من سيارات الدفع الرباعي والجنود المدججين تتقدمهم سيارة فارهة مصفَّحة تدخل الشارع سريعًا وتقتحم المدخل وتحاصر المنزل.

الكاميرات والبث المباشر للقناة العالمية ترصد شخصًا ما يترجل من السيارة الفارهة وأشار للجنود بالتوقف وأنه وحده فقط من سيدخل ليدق الباب على ساندي.

لا يزال المعلق في القناة يجهل شخصية ذلك الرجل المهيب الذي يدق بابها.

راحت ساندي تفتح وهي تضحك وفي ظنها أنه زوجها العاشق حماد سيد الرجال عاد إليها بأنواع شتى من المشويات والمقليات..

ليس هو.

الكاميرا في القناة حددت أخيرًا هويته.

المعلق ترك الصوت يأتي من المشهد الأصلي بأمر من رئيس القناة.

أصاب الذهول رأس ساندي من المفاجأة!!!

اسمحي لي بأن أدخل؟.

ولكن ال...

الرجال لا يخافون يا ابنتي.

وكأنه سمح لنفسه بالاقتحام فجأة وبدأ في التخلص من كل الكاميرات المثبتة في كل مكان، وكانت صغيرة ومخفية.

حالة من الذهول العارم أصابت المنكوبة ثم قال:

هوِّني عليكِ يا ابنتي؛ المصريون معك.

انظري.

نظرت كما أشار لها من الشباك فوجدت جحافل الجنود وآلاف الشباب الذين يرتدون جميعًا التيشيرت الأسود.

قالت وهي تبتسم وسط الدموع:

الإسكندرية حزينة لأجلي؟!!

لا يا ابنتي لا تقولي الإسكندرية، هؤلاء الشباب من كل مدينة وقرية من مصر حزانى لأجلك، مصر اليوم ترتدي ملابس الحداد إلى أجل غير مسمى.

استطاع المشهد المهيب أن يجعلها تبتسم من جديد؛ ثم استغل ابتسامتها ولاح له بريق أمل جديد ليقول لها:

نحن معك على قلب رجل واحد.

ضحكت وقالت:

لن أجعلها حربًا بين الإنس والذين كفروا من الجن.

لماذا لا تكون حربًا وأنت تعلمين أن....

إنها تتخلص من أي شخص في بضع لحظات قبل أن يرتد إليك طرفك، سنتسبب في موت الآلاف بلا نصر أو مقابل.

وماذا تقترحين؟!.

أن تغادروا المكان بهدوء؛ ولأنني أعلم أن جنودك سيطيعونك بسلاسة، فاتركني أتحدث من النافذة للشباب إنهم لن يعودوا ولو قاتلتهم بجنودك، يشعرون حسبما أرى بأنني أختهم الصغيرة لن يتركوني إلا بعدما يفهمون مني.

ولكن...

لا أريد لإخوتي أن يتقاتلوا أو يتواجهوا مع إخوتي من الجنود، أرجوك.

تفضلي يا ابنتي وأنا خلفك.

لا بل انزل وانسحب بجنودك للخلف أولًا حتى لا يشعروا بأن جنودًا بيني وبينهم.

لم تصدق ساندي جلال المشهد؛ بدت أفراح ملامح ساندي أمامهم بعد قص شعرها نهائيًا كمريض سرطان كان يستعد للموت ثم أخبروه أن التحاليل سليمة وسقوط الشعر كان بسبب الأنيميا.

وقفت جحافل الجنود حزانى خلف الشباب الذين سدَّت حشودهم مفترق الشوارع.

أخذ منها هاتفها وأعطاها هاتفًا خاصًّا جدًّا؛ لا تستطيع أي جهة اختراقه أو التنصت عليها، بالإضافة إلى الانترنت الفائق السرعة.

قالت لهم بصوت رجولي وهي تنظر إلى جموع البنيان المرصوص:

أيها الرجال.. لكل عدو سلاحه، ولكل سلاحٍ درع، والدرع الآن هو الدعاء، وأي شيء آخر سأكون أنا الضحيَّة، الاندفاع بشجاعةٍ رجولة ومن الرجولة أحيانًا أن نتراجع، قلوبكم معي وأصبحْت بكم اليوم أقوى مما يتخيل الخيال، لا أريد من أي شاب منكم أن ينسى أنني أخته، وأن خوفه عليّ فرضٌ عليه، ارعدوا بصوت واحد ليسمع كل من على هذا الكوكب أنه إذا قام هذا البلد قامت معه القيامة وأنكم لم تخذلوني، أقسم عليكم بربِّ الدموع التي في أعين الجنود ألا تتفرقوا، لا شيء غير هذا البلد سيجبر الأوغاد على الركوع للإنسانية، اذهبوا بسلام الله ، مصر، مصر، مصر، ثم أشارت لهم ليصمتوا؛ فعمَّ الصمت المكان وقالت:

اجعلوني أسمعها ليل نهار ترج كوكب الأرض.

ارتجت الأرض من هتاف الرجال وخرجت الملايين في الشوارع يرتدون ملابس الحداد منكِّسين العلم المصري في الشوارع ومداخل المدن والقرى وبيوت الأحرار حزنًا ودعمًا لساندي.

وأضرَبَ الآلاف عن الطعام في مختلف أنحاء العالم دعمًا للمقاتِلة العنيدة، وأُجبرَت الحكومات على تنكيس الأعلام، وارتدى شباب وفتيات العالم التيشيرتات السوداء انتصارًا للإنسانية التي غابت.

لا صوت أعلى من صوت الشباب الذي يزلزل الأرض: Sandy is my sister

اضطرت الولايات المتحدة الأمريكية لاعتقال رئيس القناة العالمية والزج به في السجن لتواري قبحها اللعين أمام العالم.

العالم القبيح يواري سوأته.

عدة محاولات فاشلة للانتحار قام بها حماد زوج ساندي.

لقد أصبح يخجل من ضوء الشمس، يشعر أن الموت هو أمله الوحيد.

ربطوه في سرير السجن لكنه راح يعض لسانه لينزف ويموت.

الطبيب النفسي يحاول معه: لا أقول إنك لا تستحق الموت ولكن من يدري قد تحتاجك ساندي وتكون أنت جيشها الوحيد.

هدأ حماد قليلًا لكنه لا يزال بين جدران السجن في مكان آمن.

ساندي ليست وحيدة.

صور ساندي بشكلها الجديد يملأ الدنيا.

معها ١٠٠ مليون قلب في مصر.

معها أحرار العالم وهم بالمليارات.

عادت ترسم الخريطة إياها وترسم أضلاع المكان على الحائط.

شخبطة عارمة.

لم تفهم شيء.

شهيق وزفير عميقان جدًّا.

الصلاة يا ساندي هيا نصلي لله رب العالمين.

صوت الهتاف لم يكف، الشباب في الإسكندرية والذين انضموا إليهم من باقي محافظات مصر والعالم نظموا أنفسهم ليستمر الهتاف على مدار الأربع والعشرين ساعة.

مطارات مصر وموانيها والطرق البرية تنقل حشود الأحرار من أنحاء الأرض.

هذه ليست مكة وهؤلاء ليسوا بحجاج؛ الكعبة اليوم هي الإنسانية.

الإسكندرية في حداد عظيم.

شارع ساندي خالٍ تمامًا إلا من الهتاف المزلزل الذي يؤازره من الشوارع الجانبية وباقي المدينة.

ابتسمت حينما تغير الشعار sandy is my sister.

وتحققت نبوءتها لهم بأن مصر ستجبر هذا العالم الوغد على الصلاة في معبد الإنسانية الكبير.

الجوامع والكنائس ومعابد اليهود والمجوس والهندوسيين والذين لا دين لهم.

الجميع يصلي بطريقته لكن القبلة واحدة.

العالم في حداد عظيم.

رئيس القناة العالمية يعتذر ويعلن الحداد.

وفي لقاء القمة للأندية الأوروبية دخل جميع اللاعبين وهم يرتدون السواد وطاقم الحكام والجماهير، لا لعب حتى إشعار آخر!!.

السماء تبكي، كيف للأرض ألّا تبلِّلها الدموع؟!.

غروب شمس يوم الاثنين الثاني من شهر ربيع أول.

.. لا تزال ساندي تحاول الحفر على الحائط بالسكين وتتذكر لقطات من آخر الكابوس لترسمه.

جاء الظلام لكن ساندي ليست وحيدة، إنها هذه الليلة محاطة بقلوب كل أنصار الإنسانية وأحرار العالم.

قاومت النوم لتحرز تقدمًا بشأن الشخبطة التي تفك رموزها.

النوم دائمًا ينتصر بسلاح الوقت.

وضعت على رأسها طرحة.

بدأ الكابوس.

ساندي في ڤيلا كفر عبده.

الاتصال الوارد على التليفون الأرضي.

آلو السلام عليكم.

كيف حالك يا ساندي؟!.

أهلًا بك أيتها اللعينة، دعينا نبدأ الاحتفال مبكرًا أنا بانتظارك.

.. أغلقت ساندي الخط في وجهها، وكانت بانتظار الخصم في معركة فاصلة.

الباب يدق.

أمسكت ساندي مقبض الباب وهي تفتح بهدوء حذر، ربما ستراها على حقيقتها وجهًا لوجه.

المخلوقة جاءت في صورة مَلك كما كانت تأتي لكن صوتها غليظ وعميق ومرعب.

بدت ساندي ثابتة واثقة من سكونها المهيب وقالت:

هاتي ما لديك أيتها اللعينة.

أشارت المخلوقة إلى رقبتها كدليل على علامة الذبح.

وبينما كانت ساندي تلتفت كانت المخلوقة قد تحولت، لكن لم تظهر لساندي بعد، وإنما يغطي وجهها وجسمها تمامًا كفن أبيض طويل؛ ثم قالت ساندي وهي تكمل مسلسل ثقتها:

نعم لم يعد أمام المهمة سوى طلوع شمس صباح غد الثلاثاء من شهر ربيع أول في تمام الساعة الثالثة فجرًا ولتعلمي أيضًا أنني كنت أرواغ وأرسم شخبطة لكن في الحقيقة توصلت لحقيقة المبنى وبالطبع موقعه، هل تحبي أن تتأكدي أنني عرفته؟.

هزت المخلوقة رأسها بثبات فقالت ساندي:

سأخبرك بالحرف قبل الأخير من المبنى إنه حرف الصاد.

حالة اندهاش صادم بدت من لغة جسد المخلوقة التي لا تزال مغطاة بالكفن.

ما رأيك أن أخبرك بالمزيد أيتها المصدومة؟.

لاتزال الصدمة على سيد الموقف لكن ساندي استأنفت بجرأة:

الباب الأخضر، الرواق الكبير، المنبر، القبة السوداء، هل تريدين المزيد؟.

بدأ الغضب يتخذ موقعه من لغة جسدها تحت الكفن: فقالت ساندي وهي تحاول أن تبدو متماسكة أيضًا وكأنها مباراة في الثبات:

انتظري؛ لقد أعددت لك الكثير من المفاجآت.

عرفت الزمان وعرفت المكان وعرفت أيضًا أنك تنامين حتى تتأكدي أنني أغلقت النافذة الزجاجية خوفًا من أن تأكلك الكلاب المسعورة.

أتريدين المزيد مما أعددته لك من مفاجآت؟.

رغم كل محاولات ساندي وتدريبها نفسها على الأمر لكن كان ثبات المخلوقة مرعبًا، لم تعد تهتز لما قالته ساندي فيما بعد وكأنها اتخذت قرارًا بذبحها والخلاص منها.

ثم راحت ساندي تصرخ إنقاذًا لنفسها من أن تبدو مرتعشة أو حتى خائفة لكن الرياح كانت غاضبة خارج القيلا وساندي تحدث نفسها في جمل متقطعة غير مفهومة وتهرب من طعن المخلوقة لها بسكين قديمة.

انقطع التيار تمامًا في كفر عبده، لا إضاءة تظهر من أعمدة الإنارة عبر النوافذ الزجاجية.

واستمرت ساندي تتحدث بصوت عالٍ في جمل متقطعة ولكن هذه المرة أكثر وضوحًا وثقة:

مفاجأة صادمة!!

لا وجود للكلاب هذه المرة، ربما تأثرت الكلاب بهتاف الجماهير.

النوافذ الزجاجية محكمة.

لا يظهر في الظلام سوى أنتِ أيتها اللعينة تمشين مغطاة بكفن يبدو مريعًا!!

أغلقتِ الزجاج ربما لتمنعي صوت هتاف المؤازرين للإنسانية!!

تريدينني ربما أن أخاف.

ولأنها لعبة الغموض والوضوح فاعلمي أنك لا تملكين القدرة الكافية لقتلي أو إخفائي وإلا كنت قد قتلتيني وخلّصتِ نفسكِ من كل ما تقومين به.

تريدينني أن أراكِ في الظلام بالكفن الأبيض.

مزيدًا من الرعب تقصدين.

إليك المفاجأة أيتها الملعونة.

سأهجم عليك!!.

توقفت المخلوقة فجأة ثابتة في مكانها، ثم صرخت صرخة جعلت الجهاز العصبي لساندي يقف دفعة واحدة.

لكنها لا تزال تدّعي الثبات وتقول:

وأشعر أحيانًا عند دخولي معركة فجأةً بشجاعة وقوة لا أعرف من أين أتت لدرجة الشعور بأن الخصم الذي أواجهه صار يستحق الشفقة ولأجل الإنسانية أكتفي بقتله فقط.

انقطعت الأنفاس فجأة ثم فوجئَت بعودة الإضاءة في أعمدة الإنارة وعاد الضوء الخافت بالداخل عبر النوافذ الزجاجية.

تذكرت ساندي كلام عم نبيل كأنه أمامها حين قال:

«هذا يفسر أن لديكِ قدرة على التحكم في عقلك اللاواعي، وهذا غريب جدًّا، من المعروف أن النوم موتٌ آخر».

أنتِ تريدين أن تظهري أخيرًا لي وجهًا لوجهٍ لكي ترعبني ملامحك، اعلمي أن الله لم يخلق شيئًا قبيحًا وكل ما سأراه هو الوهم الذي تحترفون صناعته.

التفتت ساندي إلى الخلف وفي أقل من لحظة تحولت المخلوقة إلى ذئب كبير متوحش يقف في وضع الاستعداد للهجوم.

هل تذكرين عم نبيل، لقد قال إنه لا يأتي الشر قبيحًا جدًّا إلا ليمنع خيرًا شديد الجمال.

فوجئت ساندي بانفتاح باب القيلا ودخول عشرات من الذئاب وتراصوا معها متخذين وضع الاستعداد للهجوم.

أعرف الآن أنكم تقرءون أفكاري، وما جئتم بهذا الحشد إلا لأنكم تعرفون السلاح الذي معي الآن.

انتفضَت الذئاب واحمرت عيونهم وظهرت أنيابهم المفترسة وملامح غضبهم المريعة لكن ساندي تحاول أن تكسب وقتًا؛ نجاتها الليلة ستجعلها

تتمكن من الذهاب إلى المكان لترى أي رسالة تنتظرها هناك بحسب حسابات عم نبيل في تفسير الرؤيا!!.

تقدمت الذئاب بحذر.

راحت الدموع الساخنة تجري على خد الجميلة وهي ترتل في وجوه الذئاب بصوت منفعلٍ ومؤثر:

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

لم تجرؤ الذئاب على التقدم لكنهم كانوا كمن يحاول الانتحار، يعوون بصخب رهيب ينتفضون كزلزال.

ولا تزال ساندي ترتل وتبكي:

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾.

يقاومون صوت القرآن كمصارع يرفض التسليم ولا تزال ساندي تصرخ بالآيات:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

بدأ دخان يبدو من ثورتهم عند قول الله تعالى:

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾.

الساعة لاتزال الثانية بعد منتصف العتمة.

لا يزال الكثير على نهاية الاحتفال.

ساندي تعود أخيرًا لأول مرة قبل نهاية موعد الاحتفال بساعة كاملة.

السلاح العظيم؛ أن تجد طريقًا إلى الله وتمشي فيه؛ الذين في الطريق لن يؤذيهم العالم ولو اجتمع عليهم.

كتب السماء.

التوراة والإنجيل والقرآن العظيم.

صوت نيران رهيبة، رائحة دخان كثيف، لقد جاءت لا لتأخذها مرة أخرى وإنما لتحرق المنزل عليها.

مكالمة واردة من الشخصية السيادية على الهاتف الذي كان قد تركه لساندي:

لا يا سيدي، لا أحد يقترب قبل صوت آذان الفجر، من يقترب سيموت!!.

نحن نرصد مشهد حريق ضخم وألسنة لهب تلتهم بيتك!!.

إنهم يسحرون أعين الناس فقط.

تقصدين..

أنا أحدثك الآن من وسط ما تظنون أنه حريق ودخان، اطمئن.

لكنني لن أقف موقف المشاهد الجبان.

ومن الشجاعة أن تبدو أحيانًا شديد الجبن.

ماذا؟.

هم يفعلون ذلك لتأتوا أنتم ويتمكنون مني وسط الزحام بطريقة ربما لا أعلمها الآن إنهم يتسابقون مع الزمن قبل ساعة الصفر؛ آخر آمالهم؛ انتهى؛ إنها تتصيد مَن يصل خوفه لدرجة معينة؛ ليكون في عداد المفقودين إلى يوم القيامة.

لكنني أشعر أن وجودنا حولك سيزيد من شجاعتك.

يشمون رائحة الخوف؛ وهذا ربما سيزيد من خوفي؛ ليس خوفي منها وإنما خوفي عليكم، لن أجعلها تتمكن مني، سأقاوم...

انقطعت أنفاس الجميع في اجتماع الأمن القومي المصري حين انقطع ذلك الاتصال المؤثر، ووضعت الشخصية السيادية الهاتف ثم وضع يديه على عينيه المغرورقة بالحزن، لكن بدا أن جميع الحاضرين منهمكون بلا عواطف تبدو على وجوههم؛ كلٌّ في جهة تخصصه.

أغلق مدير المخابرات المصرية الكمبيوتر المحمول الخاص به وكأنه انتهى مما يخصّه وقال:

العالم كله سيدي الرئيس يرصد ويتجسس على ما يحدث في منزل ابنتنا ساندي والحمد لله أوقفنا كل الاختراقات؛ لكن يوجد اختراق واحد هو من يرصد ما يجري في ڤيلا كفر عبده، لم نتوصل إليه.

الرئيس وكأنه يعلم:

ولن تتوصلوا إليه.

حاول بعضهم أن يستفهم عما يدور في رأس الرئيس لكنه لم يُجب؛ بدأ الغموض يحدق بالاجتماع؛ ثم انطلق وزير الدفاع:

تعلم سيدي الرئيس أن الله منحنا قوة ضاربة من جذور الجن لسقف سماء الملائكة؛ دعنا نحرق الأرض و...

رفع الرئيس يده فصمت الوزير في أدب رغم احمرار وجهه، ثم أشار الرئيس لمهندس الاتصال بتشغيل المكالمة المسجلة مرة أخرى ثم أشار له بأن يسرع الشريط حتى وصل إلى آخر مجموعة جُمل قالتها ساندي ثم جعل مهندس الصوت يقف عند: «إنهم يتسابقون مع الزمن قبل ساعة الصفر آخر آمالهم؛ انتهى» ثم أشار الرئيس على مهندس الصوت بأن يكررها حتى وقف الرئيس فجأة فانتفض الجميع واقفًا.

قال رئيس الوزراء:

هذه رسالة يا سيدي الرئيس!!.

بدا على الجميع أنهم يعصرون تفكيرهم وحدثت المفاجأة!!

العامل الذي كان يقدم المياه وهو رجل عجوز يخدم الرئيس منذ كان ضابطًا في القوات المسلحة قال ويداه ترتعشان:

سيدي الرئيس هل تسمح لي ولأول مرة في عمري أسمع ما يجري ولأول مرة ينطق لساني وهذا ليس من حقي.

قام الرئيس والجميع يترقب لا يدري ماذا سيفعل به بعد أن تكلم هكذا. مفاجأة!!

سحب الرئيس الكرسي وأجلس الخادم العجوز وقال له بصوت رجولي:

هي ليست ابنتي وحدي لأحتكر حق الكلام!!.

ابتسم العجوز وتهلل وجهه ثم انتظر إشارة الرئيس وقال:

لابد أن ترفع مصر كلها آذان الفجر الآن قبل موعده و..

قاطعه رئيس الوزراء قائلًا:

وكيف سنرفع الآذان قبل موعده وهل..

فأشار له الرئيس بهدوء ليصمت ويترك الفرصة للعجوز فعاد العجوز يقول:

«إنهم يتسابقون مع الزمن» هذه رسالة لك يا سيدي، الحكمة القديمة تقول «تبدأ الرسالة في نهاية المقالة»، لم تفصح صراحة حتى تكون الخدعة في الصميم، فلو صرحت وقالت ارفعوا الآذان لعلمت المخلوقة أنه ليس موعد الفجر، على الأقل هذه المخلوقة وهؤلاء الذئاب الآن سيُصدمون أن الوقت داهمهم وسينصرفون؛ ولو اكتشفوا الحيلة وحاولوا العودة نكون قد كسبنا مزيدًا من الوقت لحصول الآذان الحقيقي وانصرافهم الإجباري.

توجه الرئيس لوزير الدفاع وقال:

كيف يمكننا إيقاظ مؤذني مصر كلها ورفع الآذان يا سيادة الوزير خلال أقل من دقيقة؟.

لم يرد الوزير على الرئيس بل رفع هاتفه ثم عاد يقول للرئيس:

المؤذنون بانتظار إشارة لرفع الآذان.

ابتسم الرئيس واضطجع للخلف ثم قال:

الله أكبر.

بقي على آذان الفجر أكثر من ثلاثين دقيقة.

فوجئ الشباب المحتشدون في شوارع مصر بجنود يعتلون أسطح المساجد ويرفعون آذان الفجر!!!.

يا للهول!!

مَن فهم الحيلة من الشباب رفعَ الآذان ومن لم يفهم شارك في الاحتفال ورفع الآذان.

الجميع يرفع الآذان.

مائة مليون مصري يقولون الله أكبر!!

أصيبت المخلوقة بالجنون، أضرمت نارًا حقيقة في كل بيوت الشارع إلا بيتًا فيه قلب يقرأ كتاب الله.

إنه بيت ساندي.

اكتشفت المخلوقة الملعوب بعد دقائق وعرفت أنها كانت خدعة.

الجيش والشعب بأمر سيادي ممنوع من الدفاع عن ساندي.

السماء تبكي عليك يا ساندي.. المذيع الشهير معلِّقًا أمام الجماهير في أوروبا واللاعبون كتف بكتف يرتدون الأسود جميعهم.

أجراس كنائس الأرض يرتفع فيها الآذان!!

العالم كله يقف على قدم واحدة في عواصم الأرض.

السماء تمطر كوكب الدنيا بقطرات من الدموع.

ساندي تذكر موسى والمسيح بن مريم وتقرأ القرآن.

المخلوقة أصابت ساندي في وجهها.

اقتربت أيضًا من عنقها جدًّا.

سقطت الطرحة التي كانت ساندي تربط بها رأسها.

رأت المخلوقة أن رأس ساندي صلعاء تمامًا.

الحلم هذه المرة لا ضباب فيه.

تأكدت ساندي أنها لم تكن تشنق بحبل الستائر الذي أخذته معها في النوم السابق؛ وأنَّ قص الشعر كان أمرًا محتومًا.

كانت تشنق بضفائر ساندي الغجرية الطويلة.

اشتد الصراخ كما لم يحدث من قبل في تاريخ صرخات الجن.

ساندي تكاد أن تلفظ أنفاسها الأخيرة.

آذان الفجر الحقيقي ينطلق.

قوة أمنية جبارة تقتحم بيت ساندي وتحضرها للاجتماع.

شعر مستعار يشبه شعرها القديم لكنها ألقت به على الأرض كأنها غاضبة.

احترمها وقدر غضبها الجميع في سمو وجلال رغم عدم وضوح سبب غضبها من الضفائر المستعارة.

ساندي في اجتماع الأمن القومي نحن الآن صباح يوم الرسالة إنه الثالث من شهر ربيع أول لابد أن أكون الساعة الثالثة في هذا المكان.

يبدو على المسكينة آثار الدمار.

في يدها ورقة مطوية عدة مرات.

وضع الرئيس يده على يدها ليشد من أزْرِها؛ ثم تناول منها الورقة المطوية.

مكتوب فيها اسم المكان الذي كانت المخلوقة لا تريدها أن تراه في الكابوس.

هبَّ واقفًا دفعةً واحدة!!

وقف الجميع لوقوفه ومعهم ساندي وقد برزت بطنها على حافة المكتب وبدا عليها الدمار.

أشار الرئيس إليها بأن تجلس.

أخفى الورقة في جيبه.

يبدو أن الرئيس فكر في شيء بينما كان واقفًا، أعطى أوامره للجميع بالخروج إلا مدير المخابرات.

ثم طلب من ساندي أن ترتاح قليلًا فابتسمت بألم وقالت:

لا يمكن يا سيدي الرئيس ليس هناك وقت.

كتب الرئيس بضع كلمات في ورقة وناولها لمدير المخابرات فهبَّ واقفًا، ثم قال له الرئيس: اخرج وأخبر وزير الدفاع بالأمر ثم تشاورا في الأمر.

خرج مدير المخابرات مصدومًا ثم انفرد بوزير الدفاع في غرفة مجاورة فهب هو الآخر واقفًا ثم دخلا على الرئيس بعد أن تشاوروا في صمت بالإشارة وكأنهما يعترضان على الأمر.

ماذا لديكما؟

الأمر مستحيل وإن كان فلا بد أن يكون معلنًا يا سيدي.

سيادة وزير الدفاع الكلمة لك.

شكرًا سيدي الرئيس لكنني أتفق ورأي مدير المخابرات!!.

لكنَّ لي رأي آخر؛ سنجازف وسنفعلها.

سنتورط في حرب دموية يا سيدي كن حذرًا!!.

هل تأمر الرئيس يا وزير الدفاع؟!.

دعه يا مدير المخابرات؛ إن مصر ليست ملكي وحدي.

ما يقوله وزير الدفاع صحيح تمامًا بالفعل يا سيدي.

هكذا يجب أن نتحلى جميعًا بضبط النفس، هل تفهمان؟!.

تمام سيدي الرئيس.

اسمعاني جيدًا، سنطلق حمامة في الهواء وسنترك الجمل حتى المراعي وهناك سيبدأ موسم صيد الأسماك.

ما تقوله يا سيدي إن لم ينجح سيورط مصر.

ومصر لا تخاف.

الأمر لا يتعلق بالخوف وإنما بما بنيته أنت وشعبك و...

حين يتعلق الأمر بإنقاذ الإنسانية من الحريق لا يهم إذا أغرقنا الأرض وما عليها.

تمام سيدي الرئيس.

عانق الرئيس ساندي وقال لها:

سلاح الثقة أقوى أسلحة المرور على الإطلاق؛ الثانية الواحدة في القتال تعادل في حياتنا العادية ساعة؛ يحدث في هذه الثانية العديد من الأشياء؛ ويفوت الإنسان العادي فيها عشرات الفرص إنما أنت فأنا على يقين من قدراتك؛ كل شيء في هذا العالم يحارب مع الجندي؛ الجداران، الشجر، السماء، المدنيّون، ولكن المعادلة هي أين ومتى وكيف تستخدمين هذا الشيء ليكون جزءًا من جيشك؛ في ساحة المعركة كل غريب يقترب منك هو عدو يجب أن يسقط إن لم يتراجع في مساحة تشعرين فيها بالأمان؛ ليس من مصلحتك الاستهانة بخصم تافه طالما أنه خصم؛ حتى الساعة المعطلة تكون صحيحة مرتين في اليوم الواحد.

الخطأ قد يكلف الإنسان العادي كثيرًا من الألم لكن الجندي لن يشعر بنتيجة خطئه لأنه سيكون في عداد الموتى، وإذا كانت النهاية فلا تموتي مبتسمة ولا تموتي حزينة وإنما اذهبي وأنت صادقة فقط، الصدق هو الشهادة الحقيقية للإنسان أمام الله.

ابتسمت ساندي بعمق ثم استأنف الرئيس يقول لها:

أكملي رسالتكِ وتعرفين ما يتوجب عليك تجاه الإنسانية، قد لا تلتقي الوجوه مرة أخرى إلا أمام الله يا ابنتي في ساحة الحساب العظيم أمام أبواب الجنة.

ادفنوني في مصر في ڤيلا كفر عبده إن جئتكم شهيدة، وقبِّلني بين عيني كوداع الأب وابنته فإنهم حرموني من وداع أبي.

كانت عين الرئيس عصيّة الدمع وكانت كذلك عيناها.

فاجعة عظيمة أن تودع ابنتك وهي على قيد الحياة إلى مثواها الأخير!!

طلبت الشعر المستعار؛ سألها الرئيس السؤال الأخير:

لماذا قصصتِ شعرك وألقيت بالشعر المستعار والآن تضعينه على رأسك؛ هل هذه رسالة؟

نعم؛ رسالة كبيرة جدًّا سأترك للعرب تفسيرها لو يفقهون.

نفق تحت الأرض من غرفة اجتماع الأمن القومي!!

سيارة جيب مصفحة سوداء أخذت ساندي مسافة مجهولة تحت الأرض

فتحة في سقف النفق تقف فوقها هليوكوبتر طارت بساندي حتى انتهاء العمران.

صحراء لا يبدو منها أية معالم، سيارة دفع رباعي قديمة تقل ساندي ومعها مجموعة يرتدون ملابس البدو تسلك طريقًا غريبًا.

لا أحد يوقفها لأنه لا أحد.

الساعة الآن الواحدة ظهرًا، الباقي من الزمن ساعتان قبل الرسالة إياها، ولايزال الطريق طويلًا جدًّا.

نحن الآن أمام بحر لكن لا توجد معالم وكأنه فيلم لكفيفة من الصم والبكم.

القلوب في مجلس الأمن القومي تتابع والعرق يملأ الوجوه المترقبة.

شاشات ضخمة واتصالات تأتي ينتفض معها صدر الأماكن!!

ساندي تلف بطنها بعنف لتخفي انتفاخ الحمل الذي أصبح في الشهر التاسع وترتدي بدلة للغوص ومعها اثنان من الضفادع البشرية يغوصون في العميق.

لم يغوصوا كثيرًا حتى بلغوا لسان من الحجارة ممتد في المياه فيه كهف صغير وجدوا فيه صندوق وعندما فتحته قالت:

ما هذا؟!

فقيل لها:

إنه سلاح غريب وطاقم لزيٍّ عسكري ولكنه ليس الزيّ العسكري المصري.

انطلقت ساندي بعد أن لبست الزي العسكري وحملت السلاح في ثقة تامة تجاه تجمع للجنود الإسرائيليين ومرت من بينهم ولم يلتفت لها أحد.

ساندي متنكرة بالزي العسكري الإسرائيلي.

بعد أن مرت ابتسمت وتذكرت أنه سلاح الثقة التلقائي للمرور السهل الممتنع.

سيارة ملاكي أمام المعسكر تنتظرها.

لكن كيف ستخرج من البوابة الالكترونية المدججة!!

وقفت تراقب أحد العابرين للبوابة لترى كيف يمرون، الأمر مستحيل لأنهم يحملون تصاريح إلكترونية أيضًا تسمح لهم بالخروج.

تذكرت حديث الرئيس إليها بخصوص الثانية الواحدة من الزمن.

هناك سيارة عسكرية ينتظر قائدها وصول رتبة ما، فكرت ساندي أن تركب لكن كيف؟

سلاح الثقة!!!

وضعت السلاح بهدوء ركبت السيارة إياها في مقعدها الخلفي فجأة حتى لا يلاحظها السائق في المرآة ثم لمست كتف السائق وهي خلف الكرسي كإشارة لأن ينطلق.

انطلق السائق!!

جاء الرتبة الذي كان من المفترض أن يكون هو الذي سيركب ولم يجد السائق ولا السيارة.

دوَّت صفارات الإنذار بوجود عدو!!

نزلت من السيارة العسكرية عند أول إشارة.

ساندي الآن في السيارة الملاكي السوداء بزجاجها الأسود والتي كانت تتبعها.

السيارة مكتوب على لوحة أرقامها هيئة سياسية.

السيارة المتنكرة لا تزال تقلّ ساندي وتقطع الطريق نحو هدف ما.

بجانبها على المقعد الخلفي للسيارة طاقم لملابس امرأة يهودية ممن يطلق عليهم (الأصوليين).

الآن تفك الرباط الذي يخنق جنينها.

ساندي الآن في زيِّ امرأة يهودية متوجهة نحو بوابة للجنود الإسرائيليين بالقرب من المسجد الأقصى.

كيف سأمرُّ من هذا المعبر المدجج؟!

الساعة الآن الثالثة إلا ثلاث دقائق.

المبنى إياه كان المسجد الأقصى!!!

الرسالة مجهولة، حتى ساندي تجهل ما ينتظرها بعد ثلاث دقائق قبل ساعة الصفر!!!

انفجار ضخم وقع فجأة خلف معبر الجنود تسبب في هلع عظيم وفوضى عارمة.

ربما هذا الانفجار هو نفسه تصريح الدخول؟!

لم تجد ساندي بالطبع من يوقفها بسبب الفوضى الرهيبة لحظة وقعَ الانفجار.

الدخان كثيف في كل مكان، يبدو أنه مسيل للدموع وخانق للأنفاس.

الساعة الآن الصفر إلا دقيقة واحدة.

جهاز مخابرات الولايات المتحدة الأمريكية ينجح في التقاط صورة لساندي من داخل إسرائيل عبر أقماره ويرسل الصورة للمخابرات الإسرائيلية بعد صافرة الإنذار التي أطلقها المعسكر.

أنقذوا عاصمة أرض الميعاد من هجوم الأوغاد.

أنقذوا دين موسى.

أنقذوا القدس.

أنقذوا..

صخب وفوضى؛ دعوات للجهاد وإنقاذ معابد اليهود وآثارهم؛ الجميع يعتبر نفسه جندي بحمية الدين والعقيدة.

تسرَّبَ الخبر إلى الشوارع الرئيسية والأزقة العميقة من حي اليهود الأصوليين فهجموا جميعهم نساء وأطفالًا وشيوخًا وشبابًا لاعتقادهم أن الأقصى ومعابدهم والمدينة في خطر كبير.

المفاجأة هذه المرة أنه لا مشكلة؛ ساندي ترتدي نفس الزي لنفس هؤلاء الأصوليين، وهي الآن وسط الزحام.

ساندي الآن تصرخ بعنف!!

إنها آلام الولادة في تمام الساعة الصفر إلا بضع ثوانٍ.

ربطت فمها ليس خوفا من الألم وإنما حجة تتوارى خلفها حتى لا يسألها أحد وتتكلم وينكشف أنها متنكرة في زي يهودية.

نجح الأمر، تجمهر حولها النساء اليهوديات في فرح عظيم رغم ما يحدث حولهم؛ إذ أن ما يحدث يشبه البشارة.

الأصوليون من الرجال في الشريعة اليهودية مأمورون بغض البصر؛ وإنه لشيء رائع!!، قاموا بتشكيل حاجز بشري حول ساندي وهي تلد وهم يديرون ظهورهم لها وهذا ليس رائعًا أبدًا، إنها الآن محاصرة حصارًا رهيبًا ولو انكشف أمرها ستكون في عداد القتلى.

الدخان يملأ المكان، كل النساء اليهوديات صامدات للوقوف بإنسانية بجانب التي تلد.

ساندي تنظر في الساعة إنها إلا خمس ثوان فقط، أين الرسالة في هذا؟!

تعجبت النساء من تحديق ساندي للساعة وسألت إحداهن الأخرى:

أول مرة أرى هذه المرأة بيننا!!

انطلق صوت صراخ إحدى اليهوديات العجائز:

إنها فلسطينية متنكرة أيتها الحمقاوات.

يا للهول لقد اختفت الإنسانية الآن؛ أنها ليست واحدةً منهن!!

ساندي لم تبتسم ولم يبدُ على ملامحها الألم.

حالة من السلام الرهيب تُخدِّر جسدها الطيب.

سقط بالطبع شعرها ذو الضفائر المستعارة.

حشْد اليهوديات بلا استثناء كلهن يدهسن على بطنها لتموت ساندي قتيلة، لكن إحداهن كانت تحمل ابنها الوليد الذي أنجبته منذ خمس عشرة دقيقة فقط؛ وكانت قد هرولَت به على صدرها لتحمي القدس عاصمتهم المزعومة وهي وسط نزيف ولادتها، لكنها للأسف شاركت في الدهس، لم تتمكن من الدهس كما يجب فأعطت مولودها لابنتها الصغرى التي كانت تَدهس معهن أيضًا؛ كل امرأة منهن تقوم بواجبها الإنساني تجاه معتقدتها؛ إحداهن كانت على الكرسي المتحرك؛ جاءت لتَدهس إنسانة وتكسب ثواب الجهاد!!

الأعداء جاءوا ليخرجوكم من أرض ميعادكم يا شعب الله كي تحرقكم الأمم، الوطن أو المحرقة.

قال العدو إن الله كتب علينا التيه والشتات فاجتمعنا؛ ولما اجتمعنا قال ما اجتمعوا إلا ليموتوا جملة واحدة دون أن نفتش عنهم في الأرض!!

استنفار واندفاع عنيف.

مسألة حياة او موت بالنسبة لنا.

خطب الحاخامات اليهود ترن في كل الأرجاء.

الرجال؛ هؤلاء الذين كانوا يغضون أبصارهم لم يعودوا كذلك.

الإنسانية.. لكل واحد على هذه الأرض إنسانيته الخاصة بمعتقداته أو هواه!!!

طمسوا وجه الجميلة ساندي بأرجلهم، خرج الجنين من بطنها، وكيف لا يخرج وكل هذا الدهس على بطن أمه.

هرج كبير ومرج وزحام لا سيما بعد اندفاع الجنود الإسرائيليين لإنقاذ ساندي في الرواق الكبير بعد دخولهم من الباب الأخضر للأقصى؛ لاقتلاع معلومات عن سبب مجيئها أو ربما لأنها الآن حديث العالم ويحتاجون لشيء يخرجون به على الناس وقنوات الأخبار لينقذ كرامتهم ويقدموا أنفسهم للعالم كمنقذ للإنسانية.

اضطر الجنود للتدخل بالقوة لرفع الأجسام البشرية التي تجاهد في سبيل الرب فوق جسم ساندي.

استطاع أحد الجنود أن يلتقط المولود البريء والذهاب نحو الإسعاف التي اتجهت على الفور إلى مستشفى قريب لإسعافه إن كان لايزال حيًّا أصلًا.

أعلنت قنوات الأخبار الإسرائيلية غروب شمس ساندي.

ماتت الزهرة بعد أن دهس عليها الذي قيل إنه البستانيّ.

خرج رئيس الوزراء الإسرائيلي بوجه حزين يقول:

لا يهمنا بالفعل أن نعرف كيف دخلت هذه المرأة إسرائيل، ولو أنه بالنسبة لأمننا القومي شيء مستحيل، ربما جاءت تصلي لله، ولذلك فقضية أنها مذنبة أو لا هي أمر لم ولن نناقشه في بلدنا المحبة للإنسان والإنسانية ولكن كل ما يشغل المواطن الإسرائيلي الآن هو كيف سيكون وداع ساندي وداعًا يليق بامرأة كان تقاتل الجن لأجلنا جميعًا؛ للإنسانية.

تصفيق حاد.

وقبل أن ينتهي رئيس الوزراء الإسرائيلي من إقناع العالم بحزنه كان الرئيس المصري قد أرسل بلهجة شديدة يطلب الطفل وجثمان أمه في مدة لا تزيد على ساعة واحدة على الأكثر.

الجيش المصري رابض يزأر منتظرًا ساعة الصفر.

ورقة أعطاها أحدهم لرئيس الوزراء الإسرائيلي وهو يخطب للإنسانية فتوقف وأنهى الخطاب.

في مطار برج العرب كانت مصر في انتظار الوردة التي دهسوها!!

السماء تبكي عليك يا ساندي!!

السواد هو اللون الوحيد في العيون في الملابس.

الأماكن كلها حزينة.

الرئيس يتقدم ليستقبل الجميلة من الباب الخلفي للطائرة.

فتح الكفن.

نفَّذ الوصية، قبّلها من بين عينيها، أغلق الكفن كما كان.

العالم ينقل مراسم السواد الكبير!!!

الرئيس يحمل طفلها على صدره ويربيه في قصره.

الاسم محمد حماد.

قبر ساندي في كفر عبده وسط ملايين المشيعين.

العالم يشكر الرئيس على تربية طفلها.

محمد حماد ابن ساندي إما في قصر الرئيس أو فندق شيراتون القاهرة، أما الإسكندرية فلم ينقطع عنها.

صور ساندي صارت على كل جدار.

تبارى الفنانون في حفر ملامحها الجميلة بدون الشَّعر على الجدران.

أقامت لها الأمم المتحدة تمثالًا عملاقًا؛ صار علامة من علامات الدنيا.

وتمر الأيام تلو الأيام وحماد تيتم منذ لحظة فارقت ساندي هذا العالم:

متعب جدا وقد أرتمي على أول كتف يصادفني في الطريق؛ وكل من يفتح لصدري ذراعيه كأنما يفتح على الجحيم بابًا؛ لا يمكنني إلا على كتفيك أن أستريح.

لماذا تقاوم الحزن؛ إنه مخلوقٌ رائع؛ واسمح بكل كبريائك أن تجري على خد الورد الدموع.

مرت عليه عشرون سنة؛ قضى حماد نصفهم في بكاء هيستيري متواصل والنصف الآخر أُصيب خلالها حماد بالجنون؛ تم حجزه في مصحة نفسية حفاظًا عليه فيما تبقى من أيامه؛ وكان يبكي ثم يضحك ثم يضرب نفسه ويقول: جزء من الحفل كان عليك فيه أن تشق جيوبك وتضرب على صدرك وعلى الخدين لا تكف عن اللطم أو تُظهِر على الأقل بالكذب بعض الدموع ككل الذين يوجعهم على أبواب المقابر الفراق.

محمد حماد هو الآن أكبر داعية للإسلام في العالم كله.

الآلاف يعرفون الله كل يوم من خلال برنامجه الأسبوعي (يعرفون الله).

الجميع ربما تيقنوا أن هذا الداعية كان الرسالة التي عاشت أمه لتنجبه ببركات الأقصى، هو لم يحكِ ذلك القول ولكنه سكت؛ ربما كانت علامة على رضاه عما يقال عن حكايته.

وبينما كان على الهواء مباشرة في تمام التاسعة على قناة (إم بي سي) والعالم يتابع ذات مساء:

آلو، أهلا بكَ؛ من معي على الهاتف وما سؤالكَ؟

سؤالي هو عن أبيك الذي تحتجزه في المستشفى لأنك تخاف أن يصيبك منه العار.

قال العارف بالله محمد حماد دفعة واحدة بتلقائيةٍ معجونة بالدموع:

أراهن أنك لن تكون الأخير الذي يتكلم على أبي، أشعر من صوتك ببداية شر، وأنا مثل أمي نحب الشر إذا أتى؛ فهو يجعلنا نعرف قوة الخير التي بداخلنا.

رد المتصل:

أنت تقول إنني لن أكون الأخير و...

انقطع الاتصال.

غضب العارف بالله محمد حماد من قطع المخرِج للاتصال ثم تماسك وقال:

أنا قلت إن المتصل ليس وحده؛ إنها منظمة تريد أن تفتح النار وتوقف دخول الناس في دين الله أفواجًا؛ اللهم اجعل ظهري جسرًا للذين يريدون الطريق؛ اللهم لا تجعلهم يحرموني شرف أن أكون خادمًا لدينك.

وحدثت النبوءة، الاتحاد الأوروبي والولايات المتحدة الأمريكية على لسان وزير خارجيتها تطلب تفسيرًا لسكوت العالم عن الجرائم الوحشية للنظام في مصر بحق حماد!!

مانشيتات عريضة للصحف العالمية وعناوين أخبار رئيسية على قنوات كثير من الدول تطالب بالرحمة.

وائل الإبراهيمي في برنامجه على الهواء مباشرة:

لن نتكلم على دول الاستعمار والاستعباد؛ فضائح تاريخهم موثقة في قلوب العرب، لكن الولايات المتحدة الأمريكية فيتنام، الولايات المتحدة الأمريكية هيروشيما، الولايات المتحدة الأمريكية نجازاكي، الولايات المتحدة الأمريكية والدماء التي أغرقت شوارع بغداد، الولايات المتحدة الأمريكية جوانتانامو، الولايات المتحدة الدموية تريد أن تطمئن على رجل في سجون مصر يلاقي من قِبل الجنودِ العذابَ!!، إنها نكتة يجب أن نضحك!!.

بيان من رئاسة الجمهورية:

ليس لدينا باب لنغلقه في وجه من يريد أن يطمئن على الإنسانية.. ﴿ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾.

كان الخطاب مقتضبًا ومؤثرًا.

وفد طبي أوروبي وأمريكي رفيع المستوى في اجتماع مغلق مع الرئيس، ثم إلى المستشفى ثم رفعوا تقريرًا على موقع الأمم المتحدة لحقوق الإنسان بأن

حماد يعامل معاملة تليق بإنسانيته وشكروا فيه مصر على ما تقوم به لخدمة الإنسانية.

لكن تم تسريب الخبر!!

حماد ليس في مستشفى ولا مريض، وإنما هو أصلًا في مكان آمن بمحض إرادته المطلقة واختياره ليكون بعيدًا عن الخطر أو أن يتم استغلاله بعد ظروفه النفسية الأخيرة.

حماد أصبح رسامًا عبقريًا رغم أنه لم يمسك ريشة ولا فرشاة في حياته، ولكنه لا يجيد إلا أن يرسم صورة حبيبته ساندي.

كانت نور عينه ولم يكن يعلم، كانت كبده ولم يكن يعلم، كانت صدره بجميع محتوياته ولم يكن يعلم، كانت هو ولم يكن يعلم، وكل الذي كان يعلمه هو أنه يحبها كما يحب الناسُ الناسَ لكن الأمر كان عند حماد مختلفًا ليس لأنه مميز وإنما لأنها مختلفة.

قصر كبير به حديقة فسيحة وحمام سباحة وطباخ وخادم و..

وكان يهيم على وجهه حتى يسقطه النوم أرضًا وهو يتخيلها ويقول: ملامحك الحلوة تذكرني بالحواديت التي كنت أسمعها حين كنت صغيرًا عن أن السماء تنشق وتخرج منها في ليلة القدر ملائكة؛ كنت أحسب أن الآيات في المصحف فقط؛ لم يخبرني أحد أنها قد تكون في حَبَّتَي عينيك؛ رموك تشبه

طفلة صغيرة تقلّب أوراق المصحف؛ هذه ملامح وجه أنثى لا ريب في ذلك لكن هنالك شيء ما فيها مقدَّس.

وذات مساء ضاق القصر بحماد؛ يريد أن يرسم وجهها على جدران الدنيا كلها؛ فطلب ابنه العارف بالله محمد؛ فحضر إليه ودخل مفزوعًا من جمال لوحات وجه أمه وتفاصيل جسدها وبعض لقطات من ضحكاتها هنا ودموعها هناك وهناك تقف عارية وهنالك تمشي ملتحفة بالحياء، صور في مكان وعلى كل لون وشكل من كل الزوايا وكأنه متحف عالمي للجمال والسلام، لكن لفت انتباهه جملة كتبها حماد تحت إحدى الصور وهي «وخطيرٌ جدًّا أني أحبكِ إنَّ أحبكَ تخرجُ منكِ كطفلٍ يلهو بسنِّ الإبرةِ لكنْ بين يديه الأخرى حياتي كالبالُّون» فتوقف يحللها بعمق، ثم التفت فوجد رسمة أخرى تحتها كلام آخر فوقف يقرأ:

لا تحسبنَّ الشمس تضيء الدنيا أو القمر إنما عيناها الظالمتان.

يقولون إن الموت يخطف اللحظات الحلوة؛ تعالي لا نفض اشتباكنا حتى إذا جاء الموت نكون قد سجّلنا أطول عناقٍ في تاريخ الذين أصيبوا بالجنون.

فقال له أبوه حماد بعد أن شرد مع كتابات الجدران:

أريد أن أواجه الناس يا محمد.

لماذا؟.

لأراها في عيونهم.

عفوًا يا أبي ماذا تقصد؟

أقصد حبيبتي ساندي، أمك يا محمد، عندما أرى أي عين سأراها فيها لأنها على ملامحي وأنا أظهر في عين الذي أمامي فتكون فرصة لأن أرها بوضوح كفلق الصبح في صباح ليلة القدر.

هل أنت مصاب بالجنون حقًا يا أبي كما يردِّدون؟!

أريد ملامحها، أريد شيئًا منها، أرجوك ساعدني يا محمد!!

مجددًا يا أبي تريد أن تقلقني عليك، الناس لن يرحموك ولن يرحموا جنونك

سأموت كالأسد يا محمد أمام كوم اللحم في هذا القفص.

أتظن أنني أحتجزك؟.

لم أعد أعرف ما الحقيقة يا محمد!، أعط هؤلاء الحمقى الأوامر ليفتحوا لي البوابات.

اخرج يا أبي كما تشاء؛ لكن اعلم أنني أحبك، ...لكن دعني أسألك سؤالًا وأرجو الله أن تكون بعد السؤال راضيًا عني يا أبتاه.

ما سؤالك؟

لماذا دائمًا تقول لي يا محمد ولا تقول يا ابني؟!

في الحقيقة لا أدري، ربما تخرج بعفوية لا أعلم؛ لا يهم.

لم أقف أمامك يومًا موقف القاضي من الجاني، لكن لماذا كل هؤلاء البشر يكرهونك؛ يضربون بك المثل حينما تأتي سيرة الغدر؟!، في المسلسلات قال أحدهم لصديقه «أنت حماد» يقصد أن يصفه بالخيانة، وفي البرنامج الشهير للمقالب الذي يُعرض في رمضان معظم الذين استضافهم ذلك الممثل كان ينعتونه ب «حماد».

تناول حماد زجاجة المياه وشرب حتى رماها ثم قال في حدة وقد اغرورقت عيناه بالحزن:

عندما خطبت أمك قالت لي: «أنا لا أحبك ولكنني لا أكرهك وأحب أن أكون واضحة تمامًا، فإن تزوجنا لن ننجب وسأتناول حبوبًا لمنع الحمل حتى نتأكد من مشاعرنا»، كانت واضحة لكنه ذلك الوضوح القاسي وكنت مغرمًا حتى بجنونها، بعد نشوب خلافاتنا وارتفاع صوتنا نتيجة غيرتي الشديدة عليها وملابسها النصف عارية وجمالها الجاذب للبشر والحجر، حتى فكرَتْ في أن تتركَني؛ لكنها أشفقَت عليَّ بعد أن ظهر أنه لا مأوى لي، كان من الممكن أن أنتصر لرجولتي وأخرج من حياتها وأبدأ من جديد لكن الأمر كان مستحيلًا؛ لقد كانت الدنيا، ولا تحسب أنني أعيش الآن على الماء والهواء والطعام لا لا لا لا إنما أعيش على ذكرى الأيام التي كانت بيننا؛ وكلما كنت أطلب منها الاستقامة كانت تقول لي وهي تضحك:

يعتبر تقويم المعوج تصرفًا حكيمًا لكن ماذا إذا كان الاعوجاج هو الطريق السليم؟!

لماذا رغم هذا الحب غدرت بها؟!

كنت أظن أنها ستنجو من محنتها وكنت أظن أيضًا أنني عندما أصبح غنيًّا من الممكن أن تغيِّر نظرتَها لي وتحبني.

لكنك قلت لي ذات مرة أنها صرَّحت لك آخر مرة بحبها لك.

كانت للشفقة، أنا أعرف أمك، أنت لم تعاشرها، كانت إنسانة بمعنى الكلمة ولكن ثق تمامًا أن الجبل لو كان مكاني لتصدع أمام عينيها، قد لا تبدو لك تصرفاتي منطقية وهذا صحيح، كنت أعمى وكنت أريدها أن تحبني فقط، كانت الدنيا جهنم بينما كانت أمك الجنة؛ لم يكن أمامي خيار غير أن أكون فيها، هل تفهم؟!.

هل كنت تشك في أمي أو تظن أن لها علاقة برجل غيرك يا أبي؟.

لو قلت لك ما في نفسي هل تغضب يا محمد؟.

بات واضحًا من ردك هذا أن الإجابة هي نعم وكانت على علاقة برجل غيرك!!.

نعم لكنني لا أظن بمعنى مجرد شكوك فقط وإنما كنت على يقين يا محمد، تعلم بالطبع كما يعلم الجميع أن أمك كانت كاتبة للروايات الرقيقة التي تميل للجرأة.

هل هذا هو دليلك على ال...

دعني أكمل لك.

التزم محمد الصمت وكظم غيظه المعجون بالحزن العميق وعاد بظهره ليتكئ كما كان وترك أبيه حماد يكمل:

في إحدى حفلات التوقيع الخاصة بها كنت حاضرًا بالصدفة لأنني بالأساس غير مهتم بالأدب وهذا الهراء، كما أنها كانت لا تحب أن أظهر معها ولا حتى في الصور، وبينما أتنقل بكاميرا الهاتف هنا وهناك لأسجل لها الحفل جاءت الكاميرا على ملامحها وهي في غرام كبير فتوجهت بالكاميرا باتجاه ما تنظر؛ فوجدت عينيها في عيون أحد الكُتّاب الذي بدا بالطبع أنه غارق تمامًا وبالمناسبة يا محمد لا تترك حبيبتك تلتقي بحبيبها القديم، فالحب القديم يشبه الصحاري واللقاء يشبه المطر؛ ومع أول لمسة سينبت الحب من جديد.

ضحك محمد على تفاهة ما يفترضه أبوه وقال:

هل هذا هو دليلك يا أبي؟!، ربما مجرد إعجاب بقلمه.

ورأيتها معه أكثر من مرة في فندق سيسيل وأكثر من عشرين مرة على البحر عند الصخور المظلمة عند فندق المحروسة والمرة الأخيرة كانت تحت أشجار المنتزه وهو يلف ذراعيه حول خصرها ويقول:

لن نعود كما كنا أبدًا؛ لقد تحطم من بيننا شيء عظيم.

وما الذي تحطم؟!.

ذلك الحاجز الذي كان يمنعني من عناقك جهارًا نهارًا على رءوس الأشهاد.

ماذا حدث لك؟.

لم أعد أخاف أن يقول الناس.

قالت بدلال وهي تضحك بعد أن انتهى من حديث الغزل:

لقد كان حديثًا للجنون طاغيًا؛ ليس لأنك في التعبير ضليع؛ لا تتعلق حلاوة الحديث أحيانًا ببلاغتك إنما بجمال روح من ينصت إليك.

ثم استأنف حماد يروي جريمة الحب:

ذات ليلة كانت تحلم به وأنا نائم بجانبها وتقول بصوت عالٍ:

الوغد جاءني في الحلم واستباح شفاهي وكان سيتمادى؛ ثم في منتصف الحلم هرب فجأةً.

فغضبت ورغمًا عني أيقظتُها وقلت لها:

معذرة هل وغد لأنه كان يتمادى أم أنه هرب فجأةً؟!.

ثم ماذا حدث؟!.

بعدها أردت أن أربطها بي بأي شكل؛ فقمت باستبدال حبوب منع الحمل بحبوب أخرى للصداع لكنها كانت ذكية واكتشفَت الخدعة من أول مرة، وعادت للحبوب وكل وسائل المنع.

قال محمد لأبيه في دهشة:

استعمال المرأة لأي حجاب يستر قلبها غير الحب، يشبه تمامًا بعض الفخاخ الوهمية التي تصنعها الدول الضعيفة على حدودها المستباحة؛ كان يتوجب عليك أن تساعدها وتشير لها على طريق سعادتها وتتركها مع من تحب، عاشت خائفة وهاربة لكي لا تجرحك وكانت تملك أن تبيعك بكلمة في المحكمة و...

قاطعه أبوه:

كنت أحبها ولا أزال أبحث عنها في كل مكان ذهبت معي أو معه فيه، ما تقوله عن انسحابي أمر من المستحيلات يا محمد.

فقال محمد لأبيه:

لا يمكنك فقط صناعة المستقبل وإنما نستطيع أيضًا صناعة الماضي.

انتبه أبوه وسأله:

كيف؟!.

فقال محمد ببساطة:

ابحث عن شيء يضحكك جدًّا ثم افعله الآن.

فسأله أبوه ببعض الدهشة:

ثم ماذا؟!.

فقال محمد:

ثم سيمر الوقت ثم ستتذكر ذلك الذي فعلته وستضحك.

فضحك أبوه مستهزئًا بتفكيره:

بالنسبة لي؛ ساندي هي ذلك الماضي الذي لا يفرض نفسه على المستقبل فقط وإنما هي المستقبل نفسه أيها الساذج.

ثم كيف جئت أنا يا أبي من بين حبوب منع الحمل هذه؟.

لا أعلم!!.

معذرةً ما معنى أنك لا تعلم؟!؛ لا بد أنك تمزح، أليس كذلك؟!.

الفيديو الذي قمت بتصويره لها وهي تحدق في عين الكاتب منذ عشرين عامًا لا يزال معي وحَمَّلْتُه على الهاتف.

وما علاقة سؤالي بالفيديو؟!.

انظر، هل تلاحظ شيئًا في ملامح هذا الكاتب الذي في الفيديو؟.

حسنًا وجهه مضيء ويبدو وسيمًا وأنيقًا.

وأنت كذلك تشبهه.

إلامَ تلمح أيها الحقير؟!.

ماذا قالت لك بعدما علمَتْ بأنها حامل؟!!.

قالت لي «رزقك الله بابن ولن أحرمك منه يا حماد» مبروك يا حماد، أراد الله أن يربطنا ولن أجهضه، والابتسامة التي على وجهك لن أحرمك منها ما أعانني الله».

ولماذا أنت بهذه الوقاحة، تتهم امرأة ماتت ويشهد لها العالم بالطهر والعفَّة، ماتت شهيدة في الأقصى وأنت تقول إنها كانت تنام مع رجل غيرك في الحرام؟!!!!.

صرخ حماد:

كانت تحبه وأمر بديهي أن يحاول أن يربط نفسه بمن يحب، تمامًا كما كنت أريد أن أفعل معها؛ إنها امرأة لكنها ليست كالنساء؛ إنها مخلوق يشبه الجنة؛ وإذا أُغْلِقَت في وجهِك أبوابها؛ فقُل لي هل سيكون أمامك غير جهنم خيارات أخرى؟!.

رفع محمد صوته:

هذا خيالك المريض!!!.

تدعو الناس على الشاشات العالمية إلى الله أيها العارف ثم تشتمني بيني وبينك؟!.

احتار محمد بم يرد ولكنه قال:

استغفر الله العظيم!!!، ما تفترضه يدُكُّ جبالَ الأرض فما بالك بشاب مثلي موعد خطوبته بعد شهر واحد!!، الآن فقط علمْت لماذا لا تناديني بكلمة ابني!!.

ثم أخرج حماد من جيبه ورقة تبدو قديمة جدًّا حد التلف ثم فتحها وكأنه دليل من مسرح الجريمة وفتحها كالمجنون أمام عيني محمد الذي قرأ فيها:

أن تحب يعني أنك لا تشعر بالوجع حين تتلقى في المعارك ضربات السيوف، وكأن الموت التقى بالشجاعة وتناولا معًا قدحين من خمر، وهذا يفسر سر القوة الغريبة التي تلبس العشاق وكيف يخوض الحصان الحرب من أجل مهرته.

وكان باقي الخطاب عبارة عن عتاب من ساندي لحبيبها مراد الذي تخلى عنها.

.. انهار محمد وانقطع عن البرنامج وتساءل العالم، أين اختفى الداعية الكبير؟!.

سحبَ عيِّنة من دم أبيه.

صارح خطيبته بما جرى، كانت رائعة تشبه أمه، كتمَت سره واحتضنت آلامه وذهبت به إلى مكان سياديٍّ أمين لاستخراج (دي إن إيه) كي يلقيها على وجه أبيه حماد فيرتد إليه عقله المخبول.

العالم يسأل عن أسرار اختفاء محمد عن الشاشات.

برنامج من دولة معادية لمصر تم إطلاقه خصيصًا لاختفاء محمد وأطلقوا على اسم البرنامج (فرعون موسى)، نظرًا للتشابه الرهيب الذي بين القصتين

من تربية محمد حماد في قصر الرئيس، والكثير من الشائعات عن التنبؤ بأنه سيكون يومًا ما حاكمًا.

اختفى محمد تمامًا فترة ليست بالقصيرة.

علامة استفهام جديدة.

تناقلت وسائل الإعلام ما يذيعه برنامج فرعون موسى عن مقتل العارف بالله محمد حماد على خلفية تطلعه للترشح ضد الرئيس لا سيما بعد خشية الرئيس من شعبية محمد حماد الجارفة على حد زعم البرنامج المباشر؛ لاسيما بعد التويتة التي كتبها محمد معترضًا على التطبيع والتويتة هي « جاء الذئب يساعد الراعي على حفر البئر بعد أن جفت المراعي وتأخر المطر فخرج الراعي ليعلن عن مشهد إنسانيٍّ لم يتكرر في تاريخ العالمين وصورته بجانب الذئب الجميل يبتسمان؛ أبكى المشهد جموع الخراف إلا واحدًا فاتهمته الخراف بمعاداة الإنسانية فقال: في كل الحالات نحن ذبائح سواء كنا حلال الراعي أم حرام الذئب لكنني لم أكن أحب أن أموت ولحمي مكتنز بالجبن» وقد زلزلت هذه التويتة الدنيا على تويتر.

ما هذا؟

البرنامج يعرض لقطات فيديو لتقطيع جثة محمد حماد في مكان مجهول!!!.

الصحفيون يترصّدون خطيبته وكاميرات التليفزيون.

الكاتب مراد الذي حكى حماد عن علاقته القديمة بزوجته ساندي يجلس في بيته وسط أولاده وزوجته.

محمد متنكرًا في زي مختلف يدق باب مراد في يوم شديد البرد.

فزع مراد عندما فتح الباب وعرف محمد؛ لا سيما وأن محمد أطال النظر في الرجل الذي قيل له أنه أبوه المحتمَل.

زادت شكوك محمد حماد في الأمر بعد هلع مراد من رؤيته بما يشبه فزع الحنين.

تنهد مراد وترقرقت بالدموع عيناه وهو يقول في نفسه: الغارقون في الحبِّ يكرهون الحديثَ عن النَّجدةِ أو أيَّ هراءٍ يتعلّقُ بطوقِ النَّجاة؛ أين أنتِ لأموت فيكِ؛ إنني كرهت الحياة.

الأمر أصلًا لم يحتاج لفراسة من محمد وذكاء في فهم لغة ملامح مراد؛ قال محمد:

أحيانًا تترك الدنيا التي أنت فيها بما فيها لتعود لضحكة قديمة جدًّا يوم كنت حافيًا في يوم شديد البرد وأنت تتغطّى بالحب ثم ترتاح قليلًا على صخور شاطئ سيدي بشر.

انتبه مراد فجأة..

مراد لم يدعُ محمد للدخول، كيف يكون هنا وكيف تذيع القنوات في نفس الوقت مشاهد فيديو لتقطيعه بالمنشار؟!!.

أحس محمد بفزع مراد وتقلُّب ألوان وجهه؛ فاختصر الدوران في الحوار قائلًا:

كانت أمي تحبك ذات يوم وكنت كذلك، سؤال واحد وسأذهب وأتركك لبيتك وأسرتك بهدوء، هل نمتَ مع حبيبتك ساندي ذات يوم؟.

نعم.

هل قلت نعم؟!.

نعم؛ وفي سرير واحد.

في سرير واحد؟!.

لكن لم أستطع أن ألمسها ولا حتى أطراف قميصها، كان حبًّا أسطوريًّا يا ولدي.

يا ولدك؟، ماذا تعني بقولك «يا ولدي».

لا شيء، هل أنت غاضب مني؟.

لا، ولكن هل أنت متأكد مما قلت بخصوص أنك لم تلمسها وكنتما على سرير واحد!!.

لم أكن أجرؤ، لقد كانت وحشًا ملائكيًّا.

كيف تنام على سرير واحد مع ملكة جمال الدنيا وتقول لي أنك لم تلمسها، ثم عفوًا لماذا أراك تتفحص وجهي وملامحي؟، هل ثمة خطب ما؟.

قطع محمد حماد الحديث ومد يده ليصافح مراد فإذا بمحمد يغرز إبرةً في كف مراد ويسحب عيِّنة دم وسط هلع مراد ودهشته، حتى أن زوجته خرجت تصرخ، لكنها وقفت وقالت باندهاش غاضب:

محمد العارف بالله ابن ساندي.

فقال محمد بعد أن قبض على العينة في يده:

نعم ابن ساندي؛ لأنك ستصطدمين قريبًا جدًّا في فتى أحلامك وفي فرد جديد ينضم إلى أسرتكم السعيدة.

عفوًا ماذا تقصد؟!.

كان مراد يؤدي فروضه الزوجية على أكمل وجه؛ وهذا أكثر ما يحرق قلب الزوجة؛ أن ترى زوجها مؤدَّبًا معها ويحترم إنسانيتها كتلميذ بارع في كتابة الواجب المدرسي؛ لا سيما وأنها ابنة عمه.

وذات يوم انفجر زوجها كحقل نووي لا لشيء إلا لأن الطعام كان ينقصه الملح، فقالت الزوجة في ألم:

الطعام ينقصه أن تحبني.

لكنها لم تنجح في احتواء الانفجار فصرخت في وجهه:

إن كنت تريد أن تعلق حياتي على خطأ تنتظر وقوعه مني بحجة أنك غفرْتَ لي كثيرًا؛ فاصبر قليلًا حتى أرتِّبَ خطأً فادحًا كي تتركني وأنت مرتاح الضمير.

أصابت شظايا غضبه قلبها المسكين؛ لكن لا مناص من ذلك الحب القديم الذي كان الحياة.

الذي يحب امرأة والذي يحب امرأة جميلة لا يستويان؛ الأول يذهب عقله والثاني لا يعود عقله مرة أخرى.

وما أسوأ أن تنفرد بك نفسك لتسألك سؤال الملكين لرجل كافرٍ عن كل الأيام التي مرت والسنين من دون الحب لمجرد أنك كنت تخجل من مواجهة الناس؛ لا أحد منهم أعطاك جائزة نوبل في الأخلاق؛ العالم لا يمنح جائزةً لأحدٍ ضيَّع بالخجل عمره.

علم محمد من ملاحظته لاندفاع زوجة مراد أن اسم ساندي يتكرر كثيرًا في هذا البيت وأن ذلك الكاتب خطفه الحب القديم وأنه يعيش مع هذه التعيسة مجرد حي ميت؛ فتذكر حديث حماد عن ساندي وعن جمالها.

أجل؛ لقد أعاد وجه محمد إلى مراد ذكريات الحكاية كأنها كانت بالأمس، وتذكر يوم كان يغار عليها وعنَّفها ليلة اصطحبها إلى إحدى حفلاته فخاصمته وقالت:

سأخاصمك خصام الفجار إذ ألقوا بأمهاتهم في الشوارع ذات جحود؛ ولن أخبرك أنني ملهوفة عليك لهفة الموتى للصلاة ركعتين.

وما مرت إلا ساعات حتى جعله الشوق يزحف إلى بابها راكعًا طالبًا العفو بعد طلوع النهار فأغلقت في وجهه الباب لكنه ظل واقفًا حتى جاء

المساء؛ ففوجئ بأنها خرجت عليه بكامل أناقتها وذهبت به إلى مكانها المفضل على صخور البحر المقابلة لشارع شعراوي وقالت:

لن نعود كما كنا؛ لقد انكسر بالأمس شيء عظيم.

اضطرب قلبه في صدره وانهارت مفاصله وسألها دامعًا:

ما الذي انكسر؟!.

ففاجأته بإجابة على غير المتوقع:

ذلك الحاجز الذي كان يمنعني عن عناقك جهارًا نهارًا على رءوس الأشهاد.

فتلألأ في ظلام البحر وجهه وعاد يسألها:

ما هذا الحاجز؟

أجابت:

لم أحد أخاف أن يقول الناس.

فبدا الفرح على ملامحه؛ ولو كان للعيون صوت لسمع المارين عبر رصيف البحر صوت الزغاريد، تمسَّكت به جدًّا حين سألها وهو يقفز حتى كاد يسقط بين الصخور المتقاربة:

ماذا حدث لك هذا المساء؟.

يقولون إن الموت يخطف العشاق؛ تعالى لا نفضّ اشتباكنا حتى إذا جاء الموت نكون قد سجَّلنا أطول عناق في تاريخ الذين عشقوا.

وظل اشتداد العناق قائماً حتى ارتفع صفير الشباب من حولهم وأصوات معاكسات..

خافت خطيبة محمد عليه من الإصابة باكتئاب حاد، وتحت إلحاح منها فاجأَ العالم بالظهور على الهواء مباشرة بعد اختفاء دام فترة ليست بالقصيرة.

ولولا وجودها في حياته لكان للاكتئاب شأن آخر، حتى أنه قال لها:

الصمت على شفتيك يشبه حي على الصلاة ساعة الفجر في آذان الحرم، وبريق عينيك يشبه أفرح الذين تنادي الملائكة أسماءهم لدخول الجنة.

وبحسب نصيحة خطيبته، ظهر محمد بشكل جديد، ديكور جديد للبرنامج أناقة أكثر وشبابي أكثر وعصري ومختلف من حيث الموضوع.

القناة المعادية وخبراؤها في اجتماع ليتشاوروا ماذا سيقولون للعالم بعد افتضاح كذبهم وادعائهم أن محمد كان يتقطع في فيديو قالوا إنه غير مفبرك.

قال مذيع قناتهم المعادية:

كنا نفبرك الفيديو؛ لنضغط على الحكومات الفاسدة كي يحرروا محمد.

المتابعون للقناة يشيدون بعظمة وذكاء المذيع، حتى أنهم أطلقوا عليه المذيع الثعلب، وتم تغيير اسم البرنامج إلى (الثعلب) وازدادت نسب المشاهدة!!.

الناس غالبًا يريدون مشاهدة ما في أنفسهم على الشاشة؛ القضية إذًا لا تتعلق بصدق المحتوى أو كذبه وإنما باللعب من البداية في ميكانيكا عقول العامة ثم قُل لهم إن البحر أصبح ماءً بسُكّر سيعصرون عليه الليمون ويشرب الجميع اللبن.

ثم ما لبث المذيع أن غيّر الموضوع بموضوع آخر شديد الإثارة والتفت معه متابعو الفضائح ونسوا قضية فيديو محمد حماد.

لكن ما هذه الموضوعات المثيرة التي يذيعها ذلك الثعلب ليغطي كذبه كل هذه الفترة؟

إنه يسلط كاميراته وإنتاج برنامجه على وقائع الزنا ولا سيما زنا المشاهير ونجوم الفن وفضائحهم بالصوت والصورة!!

جذب البرنامج الناس من جميع أنحاء العالم بعد عدة حلقات مثيرة تتعلق بنجوم العالم الأكثر شهرة من قصور الملوك والأمراء ورجال أعمال وكبار رجال الدين في العالم!!!.

سلمى خطيبة محمد حماد عبر الهاتف:

أين أنت يا محمد؟!.

أنا في البيت.

ماذا بك؟!.

بخير.

كنا تحدثنا آخر مرة وعدت للحياة وانتهت حياة الاكتئاب اللعين.

لم يعد يمكنني الحديث عبر الهاتف، أظن أن كل شيء في حياتي مراقب الآن.

وفي أقل من بضع دقائق كانت سلمى معه في كافيه الفندق عندما اشتدت محاصرتها له بأسئلة عن قوة إيمانه وأنه ليس ذلك الشخص الذي يجب أن يُصاب باكتئاب:

شئنا أم أبينا أصبحت يا محمد رمزًا للإسلام، سينهار كثير من الشباب لو شاهدوا انهيارك..

قاطعها محمد بتواضع:

الإسلام باق بي وباقٍ بغيري يا سلمى كفاكِ هراء.

في هذه البلاد يا حبيبي الناس كما ترى، حتى المثقف منهم مصاب بأميّة الفكر.

ماذا سيقولون يا سلمي وكيف سيكون انهيار هؤلاء الشباب إذا اكتُشف الأمر.

بعض الناس حينما يتوقعون الأسوأ يستعدون له لدرجة أنه إن لم يقع هذا الأسوأ سيكون شيئًا سيئًا.

انهار محمد حماد قائلًا بصوت ملفِت:

متى سأسمع خبر فضيحة أن أبي هو ذلك الكاتب، فيكون إعلان البرنامج عن الحلقة «انتظروا أكبر فضيحة صادمة لأكبر داعية للإسلام على مر التاريخ ذلك الذي اكتشفنا أنه ابن الزنا وابن حرام بعد علاقة محرمة قديمة كانت بين أمه الشهيرة ب (ساندي) وبين مراد أشهر كاتب في العصر الحديث».

كتمت سلمى صوته بالقوة ثم اصطحبته إلى غرفته بالفندق، وكان هناك من يصوِّر الداعية الكبير وهو يصطحب خطيبته التي لم يتزوجها بعد إلى غرفة الفندق حيث سيختلي بها ومعهما الشيطان!!.

لم يجرؤ رئيس تحرير اليوم السابع على نشر الصور، لكنه وضعها في درج المستقبل ومما قال فيه « إذا أردْتَ أن تغيّر الآخرين بسهولة شديدة دون ذلك الصراخ الذي على المنابر، كن ثابتًا طوال عمرك على ما تريد للآخرين أن يكونوا عليه».

اشترى محمد بيتًا هادئًا في حي الزمالك بالقاهرة في كتمان شديد.

وفي موعد حلقة برنامج (يعرفون الله) لمحمد حماد طلب محمد من مشاهديه أن يعرفوا بانفصاله عن بيت الرئيس الذي رباه وأحسن تربيته وقال:

يتكون الظل على أي سطح حين يمر شيء بين الأرض والشمس، لكن الظلام لا يحل على الأرض إلا حين تحجب الأرض الشمس بنفسها.

عقول الناس كذلك؛ يأتي من يحجب عنهم نور الحقيقة فيقعون جزئيًّا في الضلال، ويظلون هكذا حتى يتعودوا على الحياة الغريبة تحت الظل، فيرحل الذي كان يقف حائلا بينهم وبين النور بعد أن تنتهي مهمته؛ ذلك أن الناس استداروا من تلقاء أنفسهم وأعطوا وجوههم للباطل بينما حجبَت أجسادهم شمس الحقيقة؛ وأصبح حلول الظلام تلقائيًا دون مؤامرات من أحد؛ لم نعد في حاجة لمؤامرة لأن يقتل نصف الشعب النصف الآخر.

ثم أعلن محمد مفاجأة على الهواء:

بات من الضروري أن أعلن انفصالي عن بيت الرئيس وعائلته صونًا لهم وحفظًا، حيث أن السياسة تقتضي الحرص والتحفظ في الكلام والأحداث، ولأنني أعيش بعفويةٍ أخشى أن يتم توريط الرئيس في أي شيء يتعلق بحياتي، الآن يا سيدي الرئيس أعلن أمام العالم كله أنني لن أستطيع أن أرد لك جميل ما فعلته معي وأشكرك من القلب، أما عن ذلك الهراء أنني أطمع في الحكم فهذا لم ولن يحدث؛ لأن الرجل الذي يدعو إلى الله إذا اشتغل بالسياسة أفسد على الناس دينهم وأفسد الناس عليه دنياه؛ الدين يشبه الماء إذا وضعنا أي شيء فيه لن يعود ماءً مرة أخرى حتى ولو كان سكر ونقطة واحدة فقط من الليمون.

وفي طريق عودة محمد حماد إلى بيته فوجئ بأن الشوارع خالية، أصيب بالدهشة لكن سرعان ما عرف من أحد البوابين أن برنامج الفضائح (الثعلب) هو الذي فعل ذلك بالناس.

العالم كله ينتظر فضائح كبار النجوم!!.

دخل محمد حماد إلى بيته مهرولًا باتجاه الشاشة، وجلس يتابع برنامج (الثعلب) بهلعٍ شديد.

تنفس الصعداء عندما وجد أن المذيع يسلط الضوء على فضيحة كبرى في أحد الأحياء الشهيرة بالتدين في إسرائيل.

المذيع: ما لا يعرفه العرب كثيرًا أن هذا الحي اليهودي متمسك بدينه بطريقة تدعوهم للفخر بأنفسهم.

وأخذ المذيع يعرض لقطات فيديو لرجال من هذا الحي يغضون البصر وهم في الشوارع حين يلتقون بالنساء.

كما عرض طريقة احتشام نسائهم واحترامهم الشديد.

قام محمد ليعد لنفسه فنجان قهوة ثم جلس يكمل الحلقة ليرى كيف استطاع هذا المذيع أن يجذب الإعلانات والمشاهدين.

المذيع: وما لا يعرفه العرب أيضًا أن هؤلاء يطالبون بإقامة دولة فلسطينية مستقلة ذات سيادة للفلسطينيين لدرجة أن الإسرائيليين يصفونهم بالخائنين؛ أيُّ روعة بعد هذا لمن يتمسك بالدين سواء كان يهوديًّا أم مسيحيًّا أو الإسلام، إنكم الآن تتساءلون» أين الفضيحة يا ثعلب.

الفضيحة أيها السيدات والسادة، أن ابن أكبر رمز لليهودية وأكبر حاخامات اليهود في العالم من هذا الحي أثبت جدارة في الدعوة اليهودية لدرجة أنه تفوق على أبيه الحاخام الأعظم.

ما المشكلة يا ثعلب، أين الفضيحة، نحن مصاصو دماء، نريد مزيدًا من الإثارة يا ثعلب.

نعم وأنا سأروي عطشكم للدماء والفضائح تابعوني بعد الفاصل الإعلاني القصير....

ضحك محمد حماد على قدرة هذا المذيع الذي يفعل بالناس كل هذا؛ لا سيما وأن هذا هو الفاصل الثاني وما أضاف جديدًا غير بعض المعلومات العامة، فأغلق الشاشة وكتب منشورًا:

عجبًا للخراف التي تمدح الذئب لأنه مَرَّ ولم يعتدِ عليهم ثم قالوا: يبدو أنه نادم على افتراسه واحدة منا بالأمس!

لكنه حذف المنشور ثم أكمل السهرة يتصفح الصفحة الخاصة به على الفيس ويرد على تعليقات عشاقه ومتابعيه على منشور كتبه «لم تكن هناك لكنها كانت في كل مكانٍ نظرَتْ إليه عيني؛ فلمّا أغمضْتُهما رأيتها هناك».

لم يجدها محمد خطيبته على الفيس فشعر أن كل هؤلاء المتابعين لا شيء؛ فكتب لها على المسنجر أو الواتس آب فلم ترد؛ فأغلق كل شيء وكتب لها رسالة على الهاتف «لا أعرف كيف أمسى العالم بهذا البريق؛ ولا ذلك الوهج

الذي أضاء الدنيا حين نزل الظلام على الأرض؛ ربما هو لون حبّتي عينيها لمّا طغى».

لم تقرأ الرسالة.

خطيبة محمد حماد تغلق على نفسها غرفتها لتتابع البرنامج وتحلل ما يجري.

انتهى الفاصل الإعلاني وبدأ الثعلب في الحديث مباشرة:

اكتشف الحاخام الأعظم والرمز اليهودي الكبير أن ابنه ليس ابنه بعد أن ربَّاه لمدة عشرين عامًا!!

وتتساءلون كيف حدث هذا؟!، انظروا.

أرادت إسرائيل المتقدمة في مجال البرمجيات أن تسبق العالم وتضيف ضمن بيانات الفرد الشخصية في البطاقة الالكترونية خانة جديدة بعنوان (دي إن إيه) وجميعكم تعرفون وظيفة هذا التحليل، لكن لمن يجهل الأمر من البسطاء أمثالي، هذا ال(دي إن إيه) يبين من هو الأب وابنه وابنته وهكذا بمعنى أنه عبارة عن بصمة خاصة لحفظ الأنساب وتحديد الأب والابن.

يتنقل الثعلب بين الكاميرات التي تقترب من وجهه ببراعة واحترافية عالية:

موظفة البطاقات أمام الحاخام تخبره أن ثمة خطأ وأن هذا ال(دي إن إيه) ليس لابنه وإنما لشاب آخر.

بهدوء شديد توقع الأب الحاخام أن هناك تبديل للتحليل فذهب ليعيد التحليل مع ابنه الذي رباه وهما يضحكان بشدة في حضور جميع العائلة والأصدقاء وكثير من محبيه من المتدينين وآلاف الصحفيين في معمل التحاليل الرسمي.

مفاجأة، (دي إن إيه) الخاص بالابن لا ينطبق على الأب، وهذا معناه أن جهاز التحليل أو الدكتورة أو الممرضة التي سحبت العينة قد وقعوا في خطأ مرة أخرى.

الجميع يضحك بشدة.

الجميع يضرب كفًّا بكف.

تمت إعادة التحليل بدكتورة جديدة وجهاز تحليل جديد ولكن هذه المرة الدكتورة بنفسها هي من سحبت العينة وسط لقطات الصحفيين في الوقت الذي اشتعلت فيه مواقع التواصل الاجتماعي بالمنشورات والتعليقات واهتزت هيبة إسرائيل الالكترونية والطبية بدلًا من أنه كان من المفترض أنها تثبت العكس.

فضيحة!!!

الجهاز والدكتورة الجديدة:

ال(دي إن إيه) يا سيادة الحاخام يثبتان أن هذا الشاب الذي تعانقه الآن ليس ابنك!!

فاجعة أسقطَت الجميع في دوامة الذهول.

ولأن إسرائيل سيداتي وسادتي كقيادة وشعب للأسف أقول هذا الكلام، ولأن إسرائيل قيادة وشعبًا يحترمون رجال دينهم بشدة ويغارون عليهم لم ينشر صحفي واحد خبرًا عن الفضيحة وبدون أن يصدر النائب العام الإسرائيلي قرارًا بحظر النشر!!!

وتتساءلون كيف عرف برنامج الثعلب بالأمر قبل أن يعرفه العالم، أظن أن الإجابة واضحة، نحن مصاصو دماء ومدمنو فضائح ولهذا نحن الأفضل، كان هناك صحفي عربي أمدَّنا بالفيديو وقبض الثمن.

وتتساءلون مرة أخرى، كيف يكون الثعلب واضحًا وصريحًا ويخبرنا هكذا بطريقة حصوله على الاسطوانات والفيديوهات، أقول لكم وبكل صراحة، أنا أفتش في تاريخ نفسي، ثقوا تمامًا أنني أبحث عن شيء أفضح نفسي به، لم أجد شيئًا حتى الآن يستحق انتباهكم لكنني أعدكم بأنني سأجد فضيحة ما، نعم، سأفضح نفسي عما قريب؛ أنا رجل مجنون بالوضوح؛ ولو كان الوضوح رجلًا لتركته يضاجعني.

تصفيق حاد من جمهور البرنامج الذي يحضر تصوير البث المباشر.

المذيع:

نلتقي بعد الفاصل لمعرفة الصدمة الكبرى وكيف سيواجه الحاخام زوجته، فاصل ونواصل هوايتنا في خلع ملابس المثالية لتقف أمامنا بثدييها عارية.

.. وأثناء الفاصل..

مكالمة واردة من شخصية سياسية كبيرة من نفس البلد الذي يبث منه البرنامج:

هل تريد يا ثعلب أن تورطنا مع إسرائيل؟

الثعلب: لا يا سيدي، أنا المسئول عما أقول وأتحمل تبعات كل شيء، الإسرائيليون الأصوليون الذي أنا بصدد الحديث عن واحد منهم، يحبون الحق بالمناسبة وليست لديهم مشكلة في الصدق، بعضهم يعبد الله كما كان يعبده موسى عليه السلام ولا مشكلة لديهم في كل شيء يتعلق بالشفافية والحق والجرأة في مواجهة النفس.

لكن هناك منهم مَن سيعتبر كلامك إهانة.

في هذه الحالة سأرد وسأتحمل المسئولية عما أقول، واسمح لي سيادتك لأنني بعد عشر ثوانٍ سأكون على الهواء مباشرة.

الثعلب على الهواء:

إن كان الحب هو السبب الوحيد الذي جمع بينك وبين شريكك في العلاقة؛ فمن حق شريكك هذا إذا غاب الحب أن يستأذن في الرحيل؛ وما هو بظالم، وأنت تدعو الله عليه ولن يجيب لك لأن الاستجابة مرهونة بوجود مظلوم، لا يمتلك كل الناس القدرة على العيش كمعالج إنساني يشفق عليك بوجوده أو يتصدق عليك ببقائه معك على سبيل الواجب.

ونظر نحو كاميرا مختلفة وقال:

وما كثرة حالات الطلاق برأيي إلا ظاهرة صحية تمامًا، أغلب الناس كانوا مجبرين على العيش لأن البديل هو الموت في شوارع التشرد، أما وقد أصبح الكثير يمتلك القدرة على الاستقلال والبدء من جديد فما عادت هنالك مشكلة بالأساس، المشكلة هي عندك أنت لأنكِ لا تزالين تعتبرين الزواج علاقة مقدسة وأطرافها أنبياء.

الرجل لا يغدر بزوجته بعد أن يصير غنيًّا وإنما يصلح أوضاع كان الفقر يكرهه عليها؛ وتصحيح الأوضاع هذا ينطبق على الزوجة أيضًا؛ بعض السوريات مثلًا بعد وصولهن شواطئ أوروبا خلعن أزواجهن، ذلك أن الفقر العربي وعاداته لم يعد لها مكان، الحكم اليوم للقلب؛ ينام في أي مكان يحب ويهجر أي مكان يشعر فيه بمجرد عدم الارتياح.

وتتساءلون هل يذكر لنا هذا الكلام الفارغ ليكسب وقتًا ليطول البرنامج ويحصد مزيدًا من الإعلانات؛ سأروي عطشكم للدم ولكنني كنت أقول للتي تخون أنه من حقكِ أن تنفصلي وتذهبي إلى حبيبك بالحلال؛ لا سيما وأن كل الطرق الآن سهلة؛ المحكمة من الممكن أن تطلِّقكِ في ساعة؛ وحبيبك الحقيقي يقف كالحصان المسعور يصهل بانتظارك؛ فلماذا الخيانة ولماذا تنتظري حتى يفضحكِ الثعلب؟!

أعزائي شكرًا لصبركم وإليكم القنبلة..

أعزائي مصاصي الدماء؛ عاد الحاخام اليهودي بابنه الذي ليس بابنه إلى بيته ودخل وتناول فنجان قهوة وكأن شيئًا لم يحدث!

في هذا الحي اليهودي المتديِّن لا يتابعون الانترنت وبالتالي ليس لديهم فيس بوك ولا تويتر ولا انستاجرام كما أنهم لا يتابعون التليفزيون بالمناسبة أيضًا، «أظن هذه فرصة للتفكير بهدوء»، هكذا قال الحاخام لنفسه.

لم تتغير معاملته لزوجته!

لم يتهمها بشيء!

لم يتغير عناقه لابنه جلعاد الذي ليس ابنه!

وأغرب ما في الأمر أنها لم تعرف شيئًا عما حدث، لأنهم كما قلت لكم يعيشون في هذا الحي حياة بسيطة يحافظون فيها على عدم التعاطي مع التكنولوجيا؛ كما أنها لا تخرج من البيت أصلًا.

ثم في السهرة أضاء الحاخام شمعة واستأذن زوجته في الجلوس وحكى لها بأدب تفاصيل ما حدث؛ فأغمى عليها.

وانتظرها بهدوء بعد أن ضمها إلى صدره حتى أفاقت وسألها:

هل عندك تفسير لما حدث؟

قالت الزوجة:

لا، ليس عندي تفسير، لم أعرف رجلًا غيرك وتعرف أخلاقي وتمسُّكي بديني وعفّتي وحجابي عن الرجال!!

لكن سيبقى السؤال يا زوجتي هذا ابننا ولكنني لست أبيه بشهادة التحليل؛ رسميًّا هذا ليس ابني!!

اهدأ كعهدي بكَ؛ لنفكر، هل تشك في أخلاقي؟!

هل تعلمين عدد الحِبال التي أربط بها الآن لساني عن التفوّه بالهراء في هذه الظروف العصيبة على القلب؟!

لا تتحدث عن القلب؛ أنت تزوجتني لأنني متشددة مثلك؛ ليكتمل بي شكلك العام ويلمع بريق وجاهتك؛ ثم تنهدت وهي تقول في ندم بعد أن استدارت: ويريدك أحيانًا لركنٍ في زوايا حياتِه كي يبدو أنيقًا جدًّا، لا حرجَ لو أنه صار بك جميلا، لماذا لم يُخبرك أنه كان يريد أن يكمل بك الديكور، الأمر كان ينقصه الوضوح..

.. شعرت الزوجة أنها ضحية شيء كانت تصنعه بيديها؛ وبأنها لا محالة مقتولة اليوم أو غدًا؛ فانفجرت في وجه زوجها:

الرسالة التي نزلت لتضع الإنسانية في كفة ثم تضع الدين في كفة أخرى بالفعل أصدق أنها نزلت من أي أماكن لكن هذه الأماكن ليس من بينها السماء

أتكفرين بديننا بعد كل هذه السنين؟!

اغرب عن وجهي بدينك ومعتقداتك؛ كل الذين بحثوا عن الحقيقة ثم وجدوها؛ ما وجدوا إلا ذلك الشيء الذي تمت زراعته في داخلهم بالأساس.

اهدئي؛ أنت طوال عمرك حكيمة.

قالت:

عندما تصادف حكيماً عامله برفق شديد؛ ستجد في عائلته على الأقل ثلاثة أو أرباع عائلته من المشوَّهين نفسيًّا.

.. نحتاج أحيانًا للتوقف عن السمع؛ ليس بوضعِ سدادة في الأذن ككل مرة وإنما بإجبار كل من حولك على السكوت.

خرج الحاخام يستشير المقربين منه، وقع مع الملتزمين فألقوا في وجهه بقوله في الكتاب المقدس:

• "وَإِذَا زَنَى رَجُلٌ مَعَ امْرَأَةٍ، فَإِذَا زَنَى مَعَ امْرَأَةِ قَرِيبِهِ، فَإِنَّهُ يُقْتَلُ الزَّانِي وَالزَّانِيَةُ".. (اللاويين سفر ٢٠ اية ١٠).

• "لَا يَدْخُلِ ابْنُ زِنًى فِي جَمَاعَةِ الرَّبِّ. حَتَّى الْجِيلِ الْعَاشِرِ لَا يَدْخُلْ مِنْهُ أَحَدٌ فِي جَمَاعَةِ الرَّبِ". (سفر التثنية ٢٣ اية ٢).

حاول أحد أصدقاء جلعاد ويدعى (عزرا) من المتدينين أن يدافع عنه باستماتة وصرخ قائلًا في وجوه القوم:

ذلك الذي كان يتفوق على أبيه في الوعظ ويغار على دينه كألف رجل مما تعدون ويحفظ (التناخ) الكتاب المقدس عن ظهر قلب ويقف مع المتمسكين بدينهم في مقدمة كل خطر يمس مقدساتنا كيف تقولون إنه يجب ألا يكون من جماعة الرب بين ليلة وضحاها؟!!!

اعتبر اليهود وعلى رأسهم (أبوه) الحاخام (آرييل بيريز والد جلعاد) أن ما قاله صديق جلعاد تعاطفًا من باب الهراء حيث قال آرييل:

لن أعصي الرب حتى ولو كانت الضحية ابني جلعاد الذي من الممكن أن أذبحه تقربًّا للرب، أما زوجتي فيجب أن تعيش لتلاقي العذاب؛ الموت ربما يكون رحمة لها إذا ثبت عليها الأمر.

ويستأنف المذيع الفضيحة وهو يداعب الكاميرات كعادته:

لاحظوا معي أيها السادة الترجمة الحرفية للكلمات، إنه يريد الموت لابنه؛ الموت للعار؛ لكنه يحب زوجته ولهذا يقنع الناس بأن الموت رحمة؛ وأنها يجب أن تعيش كي لا تُرحَم، وإن كان الأمر خالَ عليهم لأنه وصف بقائها على قيد الحياة بالعذاب والألم.

حتى هذه اللحظة ثِقوا تمامًا أننا أول من يذيع هذه الفضيحة المدوية حتى قبل المخابرات الإسرائيلية.

من برنامج الثعلب؛ القناة العالمية، فضيحة تحطمون بها أصنام المثالية وتكشفون فيها الملابس الداخلية للمبادئ، فضيحة نعيد تشكيل من يقود مجتمعاتنا على أطهار حقيقيين، فضيحة نحطم فيها تماثيل عِشنا نقدسها ونتخذها قدوة وهم يقودون الناس إلى طريق الضلال، فضيحة عشنا فيها على دين غير ديننا ونعبد فيها إله غير الله ولم نكن نعلم، فضيحة نقيم فيها حرائق كبرى لتلتهم السفلة والقتلة والمخادعين واللصوص والزناة، فضيحة

نرجم فيها أنفسنا بصخور الحقيقة المدببة لكي نتطهر مما قد يفضحنا ذات يوم أمام العالم في برنامجكم الثعلب.

.. ودائمًا ما كان الثعلب ينهي برنامجه بما يمكنه أن يجعل نفسه وما يقدمه شرعيًّا ليكسب تعاطف البسطاء، وبالفعل ليس هناك أدلّ على نجاحه من أنك لا تجد في الشوارع فردًا واحدًا يتسكع على الطريق أثناء بث البرنامج على الهواء مباشرة.

.. انقلب الأصوليون اليهود في شوارع الحي المتديِّن (هيريشيام) وفي مدينة القدس يطالبون بقتل الزوجة وتطهير الحي الطاهر منها تمامًا!!.

ولأن مراسم القتل قد تبدأ سريعًا فقد تجمع اليهود في ميدان هيريشيام بالآلاف ليشاهدوا التطهير!!

الإسرائيليون خارج القدس وخارج هذا الحي في تل أبيب وغيرها من المدن المتحضرة يرون أن ما حدث كان أمرًا عاديًّا وأن على الزوج تقبل الأمر أو رفضه دون أن تفرَض على الزوجة عقوبات.

بأمر من القيادة الإسرائيلية مباشرة تم الانطلاق بقوات الجيش المدججة بالسلاح حيث طالبوا الحاخام بتسليم الزوجة؛ وأننا دولة قانون، وأن الحي ليس دولة داخل دولة، ولا يمكن لأي مخلوق مهما كانت مكانته الدينية أن يكون له قانونه الخاص.

حدثت الكارثة.

عناصر من الجيش الإسرائيلي تصر على اقتحام المنزل بالقوة.

آلاف من سكان الحي يقفون أمام منزل الحاخام مطالبين الجيش بالانسحاب والعودة ومعلنين صراحةً أنها يجب أن تموت كما قال الرب في الكتاب المقدس.

جاءت الأوامر إلى قائد العملية بالعودة وعدم الاشتباك نهائيًّا.

استطاعت المخابرات الإسرائيلية بعد فحص الكاميرات من التوصل إلى ذلك الصحفي العربي الذي كان مندسًا بين اليهود أثناء تحليل ال (دي إن إيه) الخاص بالحاخام في معمل التحليل.

تم تسليم الصحفي العربي للمتطرفين اليهود وقتلوه جهارًا نهارًا وصلبوه على إحدى أعمدة الإنارة!!

صرخت منظمات حقوق الإنسان، وأن إسرائيل تكيل بمكيالين في التعامل مع البشر ثم استمر الصراخ ثم لم يحدث شيء سوى الصراخ، نحن عالم متحضر لا يمنع الصراخ!!.

اصرخ كيفما تشاء بالطريقة التي تحب وبحجم الصوت التي تستطيع ثم عندما تتعب يمكنك أن تستريح وتعاود الصراخ ثم اذهب وتغطَّى جيدًّا لا تترك مؤخرتك للرطوبة.

تدخَّلَ رجال الدين اليهودي في الولايات المتحدة الأمريكية بالوساطة للمطالبة بالرحمة لهذه الأنثى الزانية.

كل المفاوضات انتهت بالفشل.

سوف تموت.

لكن فقط نحن نفكر كيف ستكون محاكمتها لنعلن للعالم أن هناك كتاب مقدس وأن هناك يهودًا مخلصين لتعاليم الرب!!

أصوات داخل الحي الأصولي تطالب بتسليم الابن غير الشرعي جلعاد وأطلقوا عليه المنبوذ وأمروا بإخراجه حسب تعاليم الكتاب المقدس من جماعة الرب والسلطة الدينية وتحريم ظهوره أصلًا لشعاع الشمس.

الحاخام أغلق على نفسه باب غرفته بعد أن وضع جلعاد في مكان آمن بعيدًا عن أن تطاله أيادي المتشددين لا سيما وقد أصبح ابن حرام وهو يصرخ:

لا عجب في أن ملك الموت حين يأتي لشاب في سن العشرين ولا يجد روحًا يقبضها؛ لقد كان يموت كل يوم منذ أول يوم جاء فيه إلى هذا العالم السخيف.

طالب اليهود الولايات المتحدة بالضغط على البلد التي يذاع ويبث منها برنامج الثعلب.

وبالأمر المباشر وأثناء التجهيز للحلقة القادمة تم وقف البرنامج قبل موعد إذاعته بأربع وعشرين ساعة فقط!!.

مكالمة لا رقم لها على هاتف الثعلب، انتهت المكالمة بطيران الثعلب إلى دولة كوريا الشمالية لبث البرنامج منها في موعده المقرر!!

كوريا الشمالية تشبه الفتوّة الذي كان يقف في سوق المنطقة الشعبية باكّوس وينتزع الإتاوة بالقوة من جيوب سائقي عربات الخضار القادمة من قرى الفلاحين، إنها تتحدى الولايات المتحدة وتثبّتها بسلاح أبيض في مؤخرتها.

العالم على صفيح ساخن!!

دخل الحاخام على زوجته ليخلصها قبل النطق بالحكم، أو بالأحرى هو يريد أن يفهم:

هل عندك شيء لتقوليه؟.

لا.

هل جاء في رأسكِ تفسير ما؟.

لا.

لا تريدين الدفاع عن نفسكِ؟.

لا، ولكن اقتلني مرة واحدة لا أكثر.

ما هذا الهراء؛ ماذا تقصدين وهل يموت الإنسان إلا مرة؟.

أقصد إياك أن تتهمني بالزنا وأنه لمسني رجلٌ غيرك فهذا قتل غير القتل الحقيقي.

لمن هذا الولد إذًا، هل نحن بصدد مريم جديدة وإنجيل جديد وهذا الولد هو المسيح عيسى.

لا أقول ذلك يا زوجي العزيز!!.

لا تريدين الدفاع عن ديننا الذي يعتبرني الناس أكبر رمز فيه وهذا يهز إيمان الشباب بالرب؟!.

دعني أسألك أيها الرمز العظيم!!.

تفضَّلي.

ماذا لو كنتَ مكاني وليس لديك شيء لتقوله؟.

انهار الحاخام العاشق أمام زوجته صارخًا:

دعينا نستبدل سؤالك اللعين، ماذا لو أنتِ مكاني بحق الرب ماذا ستفعلين؟!.

لو كنت مكانكَ لصبرْتُ حمايةً لديننا؛ لصبرت قليلًا ريثما يظهر في الأفق نور الحقيقة.

إن صبرْت أنا لأنني أحبك فلن يصبر هؤلاء الثائرون خارج محبسكِ أمانة لدينهم الذي ربيتهم عليه، يريدون أن ينقضوا عليكِ قبل أن تطلع على

عينيك شمسُ الصباح، تخيّلي أن ذلك البرنامج الذي فضحنا سيتم بثه من مكان لا تطاله يد اليهود، سيبث من كوريا الشمالية!!.

العالم في انتظار أنفاس الثعلب.

خرج على العالم معلنًا في برومو البرنامج وهو يقول في أول كلمات له:

ستموت وأنت في خطر وإذا كان هذا هو الموعد الحقيقي للموت ستموت لو كنت من الآمنين، فعليك إذًا أن تحدد مكانك منذ الولادة حتى موعد الغروب إما أن تعيش في معسكرات القتال حيث الفرسان في الصفوف الأولى أو تعيش في جحر الفئران آمنا.

ثم أضاف أنه سيقوم بتفجير فضيحة كبرى في الأسبوع المقبل بخصوص قضية الحاخام وابنه غير الشرعي والتي باتت معروفة إعلاميًّا ب «الابن الحرام»، ثم فجَّر فضيحة أخرى لأحد النجوم، كما عرض لقطتي فيديو لوالد محمد حماد زوج ساندي وهو يهيم كالمغشيِّ عليه في الشوارع، ولقطة أخرى له وهو يرسم ساندي على جدران أحد المساجد والناس يشتمون ويمنعونه.

بات الناس على صفحاته يسألون عن ملابسات قضية الابن الحرام، لا شيء من الممكن أن يشغل الناس في العالم أكثر من هذا، زنا وقتل وانهيار مجتمع ديني كبير بحجم الأصوليين اليهود، إنه لأمر بالغ المتعة أن تكون دمويًّا وتشاهد أفلام العنف على أرض الواقع!!.

استدعت المخابرات الأمريكية الحاخام اليهودي لإجراء تحقيق عاجل بشأن الابن الحرام بعد أن انتفض يهود أمريكا المسيطرون على اقتصاد العالم للبحث عن مخرج للأزمة التي كادت أن تطيح بهيبة الدين اليهودي وتوراتهم وتلمودهم ورجاله ومعابدهم ودولتهم في إسرائيل!!.

قالت الدكتورة المختصة بتحليل ال (دي إن إيه) في الاجتماع المغلق:

القواعد النيتروجينية المحمول عليها المادة الوراثية بين الأب وابنه لا تنطبق من قريب أو من بعيد.

مدير المخابرات الأمريكية للدكتورة:

كيف يمكننا برأيك حل المشكلة مهما كلَّفنا الأمر من أموال وجهد؟

قمنا أصلًا بعد استصدار أمر من القيادة الإسرائيلية بفرز ال (دي إن إيه) الخاص بالحي الذي يسكنه الحاخام وزوجته وللأسف لم نجد تطابق.

ثم ماذا؟

قالت الدكتورة ردًّا على سؤال مدير المخابرات:

أن يتم فرز جميع بيانات ال (دي إن إيه) لكل الحي الذي بجانبه فإن لم نجد سنقوم بفرزها من الحي الذي يليه حتى لو قمنا بفرز تحاليل ال(دي إن إيه) للشعب الإسرائيلي بالكامل.

هل هذا الأمر صعب؟

لا يا سيدي لن يستغرق ذلك أكثر من أربع وعشرين ساعة!!

كيف هذا؟!

سيادتك لا تعلم أن إسرائيل الآن كلها قد سجَّلت تحليل ال(دي إن إيه) ضمن بيانات البطاقة الشخصية؟.

تمام، كل البيانات مميكنة ومحفوظة على الحاسوب؛ ابدئي على الفور واتصلي ب...

قال الحاخام في ألم: لم تخرج زوجتي من الشارع الذي تسكنه؛ وعلى احتمال أن هذا حدث وانتقلت إلى شارع مجاور فإنها لم تخرج أصلًا من الحي.

قال مدير المخابرات معقبًا: هذا مستحيل ومخالف للمنطق، لن نترك العالم ليقول إن الشيطان هو من ضاجع زوجتك ويهزأ بأكبر رمز ديني في تاريخ اليهود؛ شعب الله المختار.

قال الحاخام غاضبا: هل ستغار على ديني أكثر مني؟!!.

معذرة سيدي الحاخام أنت قيد الإقامة الجبرية.

أحس الثعلب أن المخابرات الإسرائيلية والأمريكية قد نجحت في غلق منابع التسريبات وأن الثعلب بكل ما تملكه كوريا الشمالية من سطوة على الأقمار الصناعية والتجسس لم تستطع مساعدته، فاضطر مؤقتًا وتجاوزًا

للأمر أن يخرج على الناس بفضيحة أخرى جديدة ولم يستطع أن يروي عطشهم القاتل تجاه فضولهم الرهيب نحو قضية الابن الحرام.

فوجئ الحاخام الإسرائيلي بزوجته تدخل عليه في مقر الإقامة الجبرية في الولايات المتحدة الأمريكية بأمر من مدير المخابرات ليتم عصر رءوسهم ومحاولة اقتلاع خيوط جديدة بعد أن أبلغَت الدكتورة مدير المخابرات بالنتيجة السلبية للتحليل وأن هذا الولد لا ينتمي لأي يهودي داخل الدولة الإسرائيلية.

مدير المخابرات للزوجة:

هل خرجتِ في أي يوم من بيتك؟.

تعرف أنني ملتزمة بديني، لكنني بالطبع خرجت للشارع الذي فيه السوق والمحلات يا سيدي!!.

وهل خرجتِ من الشارع؟.

في اليهودية الأصولية نحن لا نخرج إلا بإذن الزوج وأنا لا أظن أنني خرجت إلا مرة واحدة تقريبًا وأنا أصلًا أحاول وأظن...

مدير المخابرات الأمريكية يقاطعها في غضب:

تحسبين أنني جئت بك من إلى الولايات المتحدة الأمريكية كي تقولي «أظن»؟.

وهل تعتقد أنني أملك اليقين الذي ينقذ ديني وحياتي وسأكتمه؟.

تبًّا لحياتك!!، لن تخرج أجهزة مخابرات الولايات المتحدة الأمريكية لتقول للعالم أنها عاجزة عن كشف رجل زنا بكِ ذات ليلة في غفلة العالم الذي كان يشرب الخمر في الغرفة المجاورة.

لو سمحتَ!! انتبه لكلامك!!.

قال مدير المخابرات مستكملًا بركان غضبه:

أنتم بالأساس تكرهون الحياة، الموت عندكم أمر عادي، دينكم أهم من الحياة نفسها، ولتعلموا أيها الحمقى أنكم إذا لم تتمسكوا بالحياة فهذا يعني أنكم لا تتمسكون بالدين، أليست هذه الحياة منحة الله لك ولي ولهذا الحاخام الرمز وللمسيحيين وللمسلمين؟!، أريد أن أراكم تتمسكون بالحياة وترتجفون لسماع الإعدام، من الذي سلبكم حب الحياة، أي دين هذا؟!.

ثم ماذا بعد هذه الخطبة الرنانة؟.

اندفع الحاخام: أنتم تريدون أن تثبتوا قدراتكم في كشف غموض الحكاية؛ لا يتعلق الأمر بإنقاذ سمعة اليهود.

قال مدير المخابرات ردًّا على الحاخام:

تعاونوا معي، لا تتركوني حتى يصيبني الجنون، كيف لامرأة لم تضاجع إلا زوجها أن تحبل في طفل ليس من صلبه؟

سأله الحاخام:

ثم ماذا؟

ثم أخبروني أي مرة لعينة خرجتم من حي (هيريشيام) الذي تسكنون؟

فجأة قالت زوجة الحاخام:

تذكرت شيئًا!!.

انتفض الحاخام ومدير المخابرات واقفين في وقت واحد:

ماذا؟!!.

فقالت وهي تعصر دماغها:

خرجت مرة بدون إذن زوجي حين قالوا إن القدس في خطر وبأن مسلمة مصرية اقتحمت المسجد الأقصى وكان هذا الحدث منذ عشرين عامًا تقريبًا، ولم يكن قد مر على ولادتي سوى ربع ساعة فقط ؛ ولأنني غيورة على ديني لم أشعر في وسط الفوضى إلا أنني أجري وأسبق اليهوديات لأدافع عن حائط المبكى وعن هيكل سليمان وعن...

قال المدير وهو يقف على أعصابه:

دعينا الآن من حصر مقدساتكم واحكي لنا بالتفصيل مباشرةً أرجوك.

قالت وهي تبلع ريقها وتتنفس الصعداء:

حاضر سيدي، حملت ابني المولود (جلعاد) على صدري وهرولت للدفاع عن ديني ومقدساتي بعد إعلانهم النفيرَ في الحي، ولم أشعر يومها بالألم أمام

نداء الدين وكانت ابنتي الكبرى معي، كنت أنا وبعض اليهوديات أو من كان قد وصل إلى ساحة المسجد وكانت... يا للهول!!!.

ماذا؟!!!.

كانت هذه المرأة اللعينة حبلى حين كنا ندهسها وقد نزفت وقيل في الزحام أنها وضعت طفلًا قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة.

ثم ماذا، أكملي أرجوك.

في هذا الوقت كانت ابنتي الكبيرة (باتيل) من خلفي؛ وأعطيت لها ابني في الزحام لكي تبتعد به قليلًا؛ خفت عليه بالطبع؛ كان قطعة من اللحم.

ها.

ثم لا شيء، عدت من الزحام ووجدت ابني ملفوفًا في حجاب ابنتي باتيل بعد أن قالت أنه سقط منها في التدافع الشديد والدخان والفوضى والهرج الذي حدث ثم عدنا إلى البيت.

فصل مدير المخابرات الحاخام عن زوجته كل منهما في إقامة جبرية منعزلة، وطلب على الفور من مساعديه الاتصال بالمخابرات الإسرائيلية وتفريغ الكاميرات القديمة وكل الشرائط المسجلة.

كانت الصورة كما تراها المخابرات حين اجتمعت في أمريكا معبَّئة بالدخان والفوضى، لكن شوهد في الشريط بعد تثبيته أن جنديًّا يحمل طفلًا وليدًا وينطلق به.

لم يكن من الصعب أن تكتشف المخابرات الفاجعة الكبرى.

.. وعلى الجانب الآخر الثعلب من كوريا الشمالية يتوعد المخابرات الأمريكية والإسرائيلية بتفجير فضيحة كبرى أمام العالم فيما يتعلق بقضية الحاخام!!.

قال مدير المخابرات الأمريكية لمدير المخابرات الإسرائيلية:

بينكم خائن.

أسرع الإسرائيلي معترضًا:

لا يمكن!!.

رد الأمريكي:

كيف حصل الثعلب على الجديد في القضية اللعينة ونحن نخفي كل شيء حتى عن صديقاتنا اللائي نضاجعهن؟.

ليس لديه جديد، هذا وغد يشوِّق الناس؛ يريد أن يجذب المزيد من الانتباه والإعلانات فقط.

كوريا الشمالية لا تمزح ولا تفعل هذه الأشياء التي يفعلها العرب، لا بد أنه حصل على ما يجري هنا وربما يكون لديه تسجيلات صوتية.

الإسرائيلي:

إذن ليس أمامنا إلا تصفيته.

نخترق كوريا الشمالية ثم نقتله ثم مزيد من الفضائح لليهود رعاة السلام وحماة الإنسانية؟!.

وماذا لديك؟.

لا أعلم!!.

انتهى الأمر، أعتقد أنه يجب أن نسبقه.

كيف؟.

نعلن للعالم حقيقة الأمر بكل شفافية.

سنخلق مع المصريين أزمة، والمصريون يتعاملون معنا بحضارة، وبيننا وبينهم سلام بارد يجب أن نحافظ درجة تجمده.

ومن قال إنكم ستناصبون المصريين العداء، الشفافية ليست عداء!!.

.. وزير الخارجية الإسرائيلي يحمل للقيادة في مصر رسالة شديدة الصدمة في زيارة سرية خاطفة.

... كانت المخابرات في كوريا الشمالية بأسطول أقمارها التجسسية في فضاء الكون هي فريق الإعداد الآن لبرنامج الثعلب.

الثعلب الآن يقرأ الرسالة السرية التي ترسلها القيادة الإسرائيلية للقاهرة!!، ويقول على الهواء مباشرة بكل وضوح:

تتساءلون كيف حصلنا على الرسالة السرية التي خرجت من مكتب رئيس الوزراء الإسرائيلي سرًا وهي الآن ربما تكون في يد القيادة المصرية.

الأمر يبدو معقدًا لكن بهدوء ستعرفون الحكاية..

الحكاية بدأت أننا توقعنا أن هذه الزوجة شريفة وطاهرة منذ البدء حتى لو شك فيها زوجها الحاخام الذي يمر بأزمة عظيمة كان الله في عونه.

ثم توقعنا أن يقوموا بعمل فرز لكل مواطني إسرائيل بضغطة زر واحدة على حواسيب بيانات المواطنين وأنهم لم يجدوا تطابق لل (دي إن إيه) الخاص بجلعاد مع أي رجل في إسرائيل.

ولأنه لا رسول بعد ابن عبد الله ابن عبد المطلب ابن هاشم ابن عبد مناف، محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم؛ فإن هذه السيدة ليست مريم جديدة وجلعاد ليس عيسى المسيح العائد وأنه لا توجد ديانة جديدة على الأرض من السماء.

ثم السؤال المتوقع، كيف حدث هذا الحمل الحرام والزوجة طاهرة ولم يمسسها بشر؟

الحل الوحيد المتوقع، هو أن هذه السيدة الطاهرة بطريق الخطأ قد تم استبدال وليدها بعد ولادتها له بطفل آخر.

ولأن المخابرات الكورية لم ترصد لهذه المرأة خروجًا من الحي الذي تسكن فيه إلا مرة واحدة فقد كنا نتساءل..

ما هذه المرة؟

وأين ذهبت؟

ومتى؟

ولماذا؟

حصلت المخابرات الكورية العبقرية على نسخة من القمر الصناعي القديم وقامت برصد وجه هذه المرأة وهي تدخل الأقصى منذ عشرين عامًا، وبالمناسبة هذه الصور ليس بالمعجزة وليس بالخيال العلمي، نحن نتحدث عن كوريا التي ترعب أمريكا!!

لم ترصد الأقمار يومئذ أي طفل وليد في هذا اليوم في محيط الأقصى ولا اليوم الذي قبله غير جلعاد الوليد لكنها رصدت امرأة حبلى.

ثم رصدت طفلا جديدًا آخر غير جلعاد فجأة، معنى هذا أن الحبلى التي رصدتها الأقمار وضَعَت مَن في بطنها في هذه اللحظات.

وبعد تقريب الصورة وجدنا المرأة الحبلى التي وضعَت هي أشهَر امرأة في تاريخ الإنسانية إنها... بعد الفاصل سنواصل.

.. العالم وقف على قدم واحدة منتظرًا الفاصل اللعين!!!.

الغريب أن الفاصل ليس عن البيبسي والشيبسي وزيت الشعر والزبادي وإنما الفاصل عبارة استعراض للجيش الكوري الشمالي العملاق وترسانته النووية الضخمة!!

مخابرات الولايات المتحدة تضرب الأرض وبالطبع.

مخابرات الدولة العبرية التي تقف خجولة أمام أمريكا وتقول:

كل ما في الأمر أن الثعلب بارع في التوقع.

مدير المخابرات الأمريكية:

لا حديث بيننا وأنا سأتكلم مباشرة مع رئيس الوزراء الإسرائيلي.

.. الشاب اليهودي جلعاد في أحد أنفاق المعتقلات اليهودية تحت الأرض يصلي للرب ويتوسل إليه باكيًا أن يفك كربه وكرب أمه التي قيل له أنها تحتضر.

وفي الفاصل.. خرج رئيس الوزراء الإسرائيلي يقول على الهواء مباشرة في مؤتمر صحفي بوجه مبتسم:

طلبنا من الجانب المصري رجاءً بتحليل ال (دي إن إيه) الخاص بمحمد حماد الداعية المصري الشهير ابن ساندي أعظم امرأة في تاريخ الإنسانية لأننا نعتقد أنه الابن الشرعي للحاخام الإسرائيلي آرييل بيريز، ونؤكد أننا دولة تحترم الناس وتحترم نفسها ونحن لا نحتاج لإثبات؛ لكننا سنثبت للعالم من باب الحب أن نساءنا أطهار وأن زوجة الحاخام الجميل آرييل بيريز امرأة رائعة وتستحق أن تقف مع عظماء التاريخ بجانب ساندي المصرية.

.. قبل الفاصل بعشر ثوان ارتبك محمد حماد ولم يعلم ماذا سيقول بعد أن سبقته إسرائيل بالخبر وفوجئ بالمخرج يقول له ١ ٢ ٣ هواء..

أعزائي متابعي الثعلب في مختلف أنحاء الكوكب؛ لا تقل يا سيدي ولا يا سيدتي ولا حتى عندما تكون في قمة الرومانسية ثم لا تسألني عن السبب؛ مستمرون برصد الفضائح، أحيانا لا تتمكن من تسديد لكْمة قوية إلا بالعودة إلى الخلف قليلا؛ نوعدكم بالجديد بالمثير، أدعو العالم لمغادرة النوم العمل الطعام الشراب طالما الثعلب على الهواء، وأقول لكل من يسمعني أنت لست ببعيد عن مكر الثعلب وسأفضحك ذات يوم وستقف أمامي كدجاجة عارية تتوسل أن أقوم بمضاجعتك ليكون لك الشرف أن تموت عل سرير ديك بحجمي، أنا لست ببعيد عن أن أفضح نفسي، الكوريون هنا كذلك، أمريكا إسرائيل والاتحاد الأوربي الاستراليون وبلاد المغول لكن...

ويحاول الثعلب المحترف أن يفض اشتباك اللعثمة وألا يبتلع ريقه وأن يبدو حكيماً في تكوين جمل مفيدة من وحي خياله الأدبي بعد انهيار ما كان قد رتّبه قبل الهواء، قال:

مشكلتنا أن قيمة الأشياء في أعيننا ثابتة وهذا مؤشر على أنك تعيش في كهفٍ خارج معسكر الأبطال، أغلى مكان عندك هو الجُحر وأعظم رياضة برأيك هي الهرب، أسعار الأحلام مستقرة؛ لا تقبل الارتفاع أو الهبوط، وأغلب هؤلاء يموتون من السمنة وعلاقتهم بالحياة أشبه بعلاقة موظف حكومي على الدرجة السادسة بمرتّبه، أفكاره عن الأمان تشبه القفص وأفكاره عن البطولة تشبه الأسد؛ المعارك عنده تتلخص في الحصول على

اللحم وسيموت من السمنة وقد حقق حلمه وهو في منطقة السلام الكئيبة وبجانبه اللحم داخل القفص الآمن...

.. قطع رئيس الوزراء الإسرائيلي المشاهدة وفتح تويتر وكتب تويتة أرسلتها إليه المخابرات الإسرائيلية ثم أغلق الهاتف وعاد يتابع برنامج الثعلب الذي يقول:

بصراحة ليس لدينا جديد لنضيفه غير شيء بسيط وهو أنني سأترككم الآن لمشاهد حصرية لخروج محمد حماد من الفندق الذي كان يقيم فيه إلى مكان مجهول بصحبة المخابرات المصرية.

وبصراحة شديدة لم تتمكن كوريا من رصد تحركات المخابرات المصرية، وهذا ما لا يعرفه العالم عن عبقرية هذا الجهاز المصري شئنا أم أبينا ولكن..

دعوني أذيع بعد هذه اللقطات من أمام فندق شيراتون القاهرة، أول مكالمة جاءت لمحمد حماد بعد أن أجبر برنامج الثعلب رئيس الوزراء على الخروج للمؤتمر الصحفي قبل قليل.

المكالمة على القناة الكورية:

محمد: آلو سلمى حبيبتي.

سلمى: طالما أنك تتكلم بهدوء هكذا فلا بد أنك لم تتابع الثعلب.

محمد: هذا الرجل أعلن إفلاسه ولا يجذب سوى السذج وال..

سلمى: يا محمد افهم أرجوك، يجب أن تغادر الفندق إلى مكان آمن، وعلى أية حال أنا في الطريق بيني وبينك أقل دقيقتين.

محمد: ماذا يحدث؟ وما الذي قاله هذا اللعين سيجعلني أغادر وأختفي؟!؛ انتظري سأفتح التليفزيون.

سلمى: لا وقت أرجوك!!

محمد: أحدهم يدق الباب!!

سلمى: إنها المخابرات المصرية يا محمد بالتأكيد.

محمد: المخابرات؟!

سلمى: نعم، هذا منطقي.

محمد: انتظري لأرى من الباب لكن أولًا أخبريني ماذا يجري..

سلمى: هم سيخبرونك الآن يا محمد؛ لم يعد شيئًا خافيًا؛ افتح الباب وإلا سيكسرونه عليك.

.. أعزّائي المشاهدين في مختلف أرجاء كوكب الأرض، هذه كانت آخر كلمات سمعناها عن الداعية الإسلامي الشاب الوسيم محمد حماد الذي كنا نطلق عليه موسى فرعون لكننا كنا مخطئين؛ الموضوع الآن تخطى حاجز الفراعنة، إنه صراع للحضارات ونحن على أبواب حرب عالمية أيها السادة؛ لكن بتوقعاتي للمفاوضات اسمعوا مني هذه القصة القصيرة جدًّا..

فوجئ المجرم حين دخل على ضحيته أنها تقدم له السكين بهدوء؛ فتبادر إلى ذهنه أنها تريد الانتحار؛ لكن المفاجأة الأكبر بعد تسديده عدة طعنات بهذا السكين في أماكن متفرقة من صدرها ليس استسلامها للمجزرة؛ إنما محاولتها قبل أن تفارق الحياة أن تمحو آثار البصمات وتنظِّف مسرح الجريمة؛ ففرض السؤال نفسه على المشهد حين سألها ذلك المجرم وهو في حالة ذهولٍ قبل أن تموت ببضعة أنفاس: لماذا فعلتِ كل هذا.

ماذا تقصد بهذا المثل الغريب؟!

المجرم هو العدو أما تلك المقتولة هي الأمة العربية.

انتهى العرض الذي برع فيه الثعلب؛ لكنْ كانت التويتة التي كتبها رئيس الوزراء الإسرائيلي أصابت مواقع التواصل بزلزال شعرت بقوته المخابرات في كوريا الشمالية.

.. مفاجأة صادمة للثعلب!!!

السلطة العليا للحكم في كوريا تأمر بقطع البث على الثعلب وتقديمة للمحاكمة العسكرية العليا وفي خلال أقل من ثوان كان الحكم معلنًا أمام العالمين.

قال الثعلب للضابط الكوري الذي وضع في يديه الكلابش:

ستكسرون عظامي؟

قال الضابط وهو يبتسم:

الناس لا يريدون تكسير عظامك كما تتوهم؛ الناس يريدون قتلك فقط.

حكمت المحكمة العسكرية العليا في - بيونج يانج - كوريا الشمالية، على (طه إسماعيل جاب الله حمروش) الشهير بالثعلب بالإعدام العلني رميًّا بالصاروخ في ساحة (كايسونج) في تمام الساعة الواحدة بعد منتصف النهار يوم الأحد القادم، تحيا كوريا الشمالية وكرامتها بين الأمم.

ولأن الثعلب كان مصري الجنسية فقد احتجت وزارة الخارجية المصرية على الحكم وطلبت الاطلاع على أوراق القضية.

وفي ملف قضية الثعلب وجدت اللجنة المصرية المكلفة أنه قال:

أعزائي متابعي الثعلب في مختلف أنحاء الكوكب، مستمرون برصد الفضائح، نوعدكم بالجديد بالمثير، أدعو العالم لمغادرة النوم طالما الثعلب على الهواء، وأقول لكل من يسمعني أنت لست ببعيد عن مكر الثعلب وسأفضحك ذات يوم وستقف أمامي كدجاجة عارية تتوسل أن أقوم بمضاجعتك ليكون لك الشرف أن تموت عل سرير ديك بحجمي، أنا لست ببعيد عن أن أفضح نفسي، الكوريون هنا كذلك، أمريكا إسرائيل والاتحاد الأوربي الاستراليون وبلاد المغول لكن.

ووجدت اللجنة أن المحكمة العسكرية وضعت خطًّا تحت الكلمة التي يهدد فيها هيبة الدولة الكورية وأنهم هنا في بيونج يانج لا يسمحون لأي كبير أو صغير بإهانة الدولة.

أقسم الثعلب أثناء الدفاع أنه يقصد بقوله «الكوريون هنا كذلك» أن الكوريين هنا كذلك لن يسكتوا عن فضح العالَم وكشْف أقنعة المزيفين المتشدقين بالمثالية والمبادئ، لكن المحقق العسكري لم يقتنع بدفاع الثعلب بعد عرض ملامحه على متخصص في علم الفراسة الذي أضاف أن تفاصيل ملامح الثعلب تؤكد إدانته.

الآن فقط عرفت لماذا يُخرِج السياسيون كل كلمة على أجزاء بعد أن يفكروا في كل جزء حد أن الملل نفسه يمل منهم، حتى أن الذي يريد أن يتصيد لهم أخطاء يشعر بالانتفاخ.

الثعلب أمام الصاروخ والعالم يتابع بعد بضع دقائق انطلاقه في منتصف صدره.

التويتة التي زلزلت تويتر على حساب رئيس الوزراء الإسرائيلي «كل الدجاج في مرمى الثعلب؛ الكوريون هنا كذلك».

وبعد نجاح هذه التويتة في إصابة علاقة الثعلب وكوريا بالتوتر كتب رئيس الوزراء الإسرائيلي في التويتة التالية:

يمكن للعقل أن يضرب أي مكان فشل الجنون في الوصول إليه.

وفجأة تناقلت وكالات الأنباء العالمية نبأ خروج الأسد من عرينه؛ وزير الدفاع المصري في بيونج يانج مع نظيره الكوري الذي قال:

يعتقد بعض السذج أنهم نجحوا في ضرب علاقتنا بالثعلب، نحن من البداية دعوناه من الدولة المعادية لمصر وكنا نخطط لنسلمه كخروف للمصريين في عيد الأضحى!!.

وفي نهاية التفاوض بعد تدخل القيادتين تم تسليم الثعلب للسلطات المصرية، حيث ستتم محاكمته في القاهرة.

مصيبة وفاجعة أفزعت العالم..

مؤتمر صحفي عالمي في القاهرة.

وزيرة الصحة ستعلن بعد قليل نتائج الفحوصات وتحليل ال (دي إن إيه) الخاص بمحمد حماد الداعية الإسلامي الأول في العالم والذي يحمل الجنسية المصرية.

العالم يترقب الحدث من داخل هيئة رسمية معترف بها وعلى مستوى رفيع.

محمد المحتجز في إحدى الأماكن الآمنة يتابع مثله مثل أي شخص في العالم ولا يعلم شيء عن حقيقة أي شيء!!

كيف لمركب صغير في الرياح العاصفة أن يحدد وجهته وسط المحيط؟!

دقائق ويبدأ البث المباشر للمؤتمر الصحفي العالمي من القاهرة.

محمد حماد الذي كان منذ يومين يظن أن أبيه هو الكاتب المصري الشهير، تُرى ماذا سيكون مصيره ومَن هو أبوه الحقيقي؟!!

خطيبته قطع عنها الاتصال به ربما لأجل غير مسمى بعد أن شرح له مدير المخابرات المصرية حساسية الوضع وخطورة الاتصالات!!

الوقت يمر على محمد كطفل وضعوه على موقد زيت يغلي.

قام يتوضأ ويلوذ بالله رب العالمين ويبكي في سجوده، لكن أذنيه تتابعان صوت التليفزيون المصري الرسمي بالقناة الأولى لانتظار المؤتمر الصحفي.

جلعاد يشد في ضفائره الطويلة ويضع يده على القبعة التي على رأسه وهو يتابع من موقع احتجازه شاشة التليفزيون وكأن الإسرائيليين يريدونه أن يتابع بنفسه لا سيما وأنهم أحضروا له الشاشة التي لم يكن أصلًا يتابع منها أي شيء؛ كان متفرغًا لصلواته والوعظ ومقاومة أعداء مقدساته على حد زعمهم أنه وهب حياته للرب والتوراة.

بدأ المؤتمر، زاغت الأبصار في صمت وترقب شديدين، ومع صوت الأنفاس المكتومة بدأت وزيرة الصحة في مصر حديثها الرسمي:

بسم الله الرحمن الرحيم

أنقل للعالم كلمة القيادة المصرية، في زمن عز فيه الشرف، وتطاول على الحق أصحاب الباطل، لن نقول سوى الحق ولو على رقابنا.

أثبتت تحاليل ال (دي إن إيه) التي أجريت عدة مرات للشاب الداعية محمد حماد والحاخام الإسرائيلي آرييل بيريز أنهما متطابقان وأن محمد من الآن هو محمد آرييل بيريز.

.. نظرات دهشة عارمة!!!!

قوات الأمن المدجَّجة تحاصر كل الصحفيين حصارًا من حديد.

لا أحد له الحق في الحديث إلا بإشارة من الوزيرة.

لا أحد له الحق في خروج حرف من لسانه.

يمكنك التعبير فقط بالدهشة من خلال حواجبك أو الانهيار بكامل ملامحك كما تشاء.

حالة انهيار حاد لمفاصل المنطق لحظة النطق بالحقيقة ولا تزال المفاجآت تتوالى وتكمل الوزيرة في رباط شديد حديثها:

وأثبتت التحاليل التي أجريناها بالاتفاق مع وزارة الصحة في تل أبيب أن حماد السيد عبد الرحيم السنهوري زوج ساندي الذي كنا نظن أنه الأب الشرعي لمحمد حماد أنه ليس كذلك وإنما هو والد الشاب اليهودي جلعاد، وجلعاد من الآن هو جلعاد حماد السيد عبد الرحيم السنهوري.

الشاب اليهودي الآن في محبسه يبكي من العمق ويصدِّق الخبر دون أن يفهم كيف حدث؛ بداخله شيء قبيح كان يشعر به تجاه هذين الغريبين اللذين كانا يقومان على تربيته، كان يشعر تجاهها بأنه يريديها على سرير الجنس، كان

يشعر أنه شاذ بهذا الإحساس الغريب وأن الرب لا يرضى عليه، هذا الشاب الذي قيل إنه رفض صدر أمه حين كان جنينًا بعد يوم الأقصى، يوم تم استبداله عن غير عمد، وبدأ يتساءل ونسي أنه يهودي:

ما شكل أبي؟ وكيف سيعانقني، وهل يشتاق لي كما أشتاق له الآن؛ أرييل بيريز كان يريد أن يذبحني بسكين معتقداته؟!.

استكملت الوزيرة الكلام وسط حواجب الدهشة المرتفعة داخل القاعة المحاصرة بالحراسة المشددة:

وأترك الكلمة الآن لوزير الداخلية المصري فليتفضل.

قال الوزير:

نقلًا عن القيادة السياسية المصرية، في زمن لا يعرف الناس فيه شيئا عما يسمى بالحق الذي أصبح بيننا غريبا تقف مصر معلنة الحق ولو كلفها العزيز والغالي.

أحرار العالم في كل مكان على هذا الكوكب، بعد مراجعة شرائط وكاميرات المسجد الأقصى المبارك وبعد التحقيق الدقيق مع الجندي الذي حمل الطفل في زحام ذلك اليوم وسط الدخان ومع الابنة الكبرى لزوجة الحاخام الإسرائيلي اكتشفنا بالتعاون مع مخابرات إسرائيل أنه تم التبديل الغير متعمد للطفلين؛ فهذا الجندي التقط ابن المرأة اليهودية الذي تم تسليمه بعد ذلك للسلطات المصرية على أنه ابن ساندي، وهذه البنت الكبرى لزوجة الحاخام التقطت ابن ساندي على أنه هو أخوها وهي لا تعلم.

ولأن سقوط الطفلين الوليدين في الزحام وسط الدخان كان عفويًّا جدًّا؛ فلم يهتم أحد ولا كان يتوقع أنه تمت عملية الاستبدال الغير متعمدة وسط الفوضى والدخان؛ وتربى جلعاد في مصر على أنه محمد حماد وأصبح رمزًا للدعوة الإسلامية في العالم وتربَّى محمد حماد في (شيريهام) الحي الإسرائيلي اليهودي على أنه جلعاد وقد أصبح رمزًا لليهودية في العالم كما تعلمون.

يعود الميكروفون الآن لوزيرة الصحة الإسرائيلية:

نقلًا عن القيادة الإسرائيلية، تحياتي للفراعنة ولأحرار العالم ثم أما بعد، نحن نرجو ألا يكون بيننا والمصريين إلا السلام، السلام ولا شيء غيره، لا خيار لنا إلا أن نعيش على التفاهم، وبناءً على ما سبق، نعلن للعالم براءة زوجة الحاخام الإسرائيلي آرييل بيريز من تهمة الزنا الموجهة إليها وكنا نود أن ندعوها للاحتفال غير أنها الآن تحتضر، فباسم الإنسانية والرحمة طلبت مني (نيريت) زوجة الحاخام أن أقرأ على المصريين قيادة وشعبا هذه الورقة التي أصدقكم القول أنني سأقرأها وأنا لا أعرف ما فيها إلا الآن لأول مرة مثلكم تمامًا وهذه أمانة.

... وبينما كانت وزيرة الصحة الإسرائيلية تفتح الورقة كان الشاب اليهودي الأصولي المتدين جلعاد في إسرائيل داخل محبسه يمسك ضفيرتيه ويشد في ذقنه الطويل من الصدمة ويسحب الطاقية التي على رأسه وينظر إليها كأنها سِحر ثم هرع يجري نحو الكتاب المقدس ليخلصه مما يشعر،

وكان نفس المشهد كذلك عند الداعية الإسلامي الكبير محمد في مقر لإقامته الجبرية وهو يضع المصحف على صدره وسط هذه الفاجعة.

.. فتحت وزيرة الصحة الرسالة وفوجئت بشخص يصدر ضجة وهي تنظر لبعض الارتباك في صفوف الصحفيين، لكن يبدو أنه تم القضاء على الصوت أو على صاحبه؛ فعاد الهدوء وبدأت تقرأ في صوت مؤثر حيث إنها كانت من أصول عربية وتجيد اللغة العربية قليلا:

أخاطب أمهات العالمين من كل جنسيات الدنيا وعلى اختلاف معتقداتهن وأسألهن، مَن منكن تحتمل القدرة على فقدان ابنها في زحام سوق مثلًا مدة لا تزيد عن ساعة، وإن كانت الإجابة بالنفي وأنه لا يمكن لأم أن تفقد ابنها مدة ساعة إلا بإغماء، فما قول الذين لا يزالون على قيد الإنسانية أن امرأة فقدت ابنها عشرين سنةً ثم أعاد الله إلى عينيها النور وأن ابنها الحقيقي في مكان ما يؤمن بدين آخر غير دينها التي كانت ستربيه عليه وصلاة أخرى ولباس مختلف، هل يمكنني أن أرفض ابني لمجرد أنه مختلف الآن، كيف يمكنني الاستغناء عن كبد الروح، لقد أعاد الرحمن إلى حبتيّ عيني النور، وتتساءلون، هل كنتِ تشعرين بفقد ابنك، أترك لأمهات العالم الإجابة على السؤال، لأن الذين لم يلدوا لن يدركوا ما أقول ولو أتيت لهم بحسابات الكون، ذلك أن الأمر لا يتعلق بالحساب وإنما المشاعر، كنت أشعر بجلعاد غريبًا لكنني لم أتخيل الأمر كما انتهى الآن، كنت أتهم نفسي بأنني لست أم

صالحة، ولكنني الآن تأكدت أنني أم، أنا ملهوفة ككل الأمهات على ابني، أعرف اللهَ وأراه كما لم يره أحد في العالمين، أنا الآن أرى الله في كل مكان ولأن الله في كل مكان فكل الطرق التي تؤدي إليه صحيحة، المهم أن تصل إلى الله وتقول أنه لا إله إلا الله، كل دين يحتكر الجنة لأتباعه ويقف على معبر جهنم ليجبر الذين كفروا على الجحيم، يا قطعة مني يا من تسمعني الآن أيًّا كان اسمك أو شكل ملابسك ووجهة معتقدك؛ أمك تريد أن تعانقك قبل أن ترحل إلى السماء للأبد، ويأيها الذين تعبدون الله مهما كانت شكل عبادتكم له لا تقفوا بيني وبين حضن ابني، أخبَروني الأطباء أنه بقي لي ساعات قليلة قبل أن أرحل، فإن كان الله الذي تعبدونه قد أمركم أن تحرموا أمًّا من حضن ابنها فاعلموا أن الذي تعبدونه هذا ليس الله، الله رحمة الله محبة الله لا يحرمكم حضن أبنائكم أو بناتكم ولا ساعة واحدة في زحام سوق قبل أن يخبركم أحد المارة أن هذا ابنك يصرخ عليك.

خرج المتحدث الرسمي للرئاسة فور انتهاء المؤتمر مباشرة وأعلن أن الأمر شخصي لصاحب الشأن ولا علاقة للدولة به إلا حمايته والحفاظ عليه بل والقتال لأجل حريته الشخصية إن وجب الأمر لأنه في النهاية إنسان ونحن دولة تحترم الإنسان.

فوجئ حماد وهو على مشارف الانتهاء من رسم وجه ساندي على مدخل نفق سيدي جابر على البحر المقابل لنادي القوات المسلحة بالإسكندرية أن

إحدى الفتيات تحمل صورة مكبرة للشاب اليهودي جلعاد بعد ما قامت بعمل فوتوشوب لها وقامت بقص الجزء الخاص بضفيرتيه ولحيته وتركت ملامح الوجه فقط ثم عرضتها له وقالت لحماد:

من هذا؟

فقال لها وهو يبكي ويصرخ:

من أين لكِ بهذه الصورة، إنها لها، إنها حبيبتي، إنها ساندي أو قطعة من روحها.

فقالت له وهي تمسح عن وجهه وذقنه الطويل تراب الأيام:

إنها كما قلت قطعة من روحها؛ أعلنت وسائل الإعلام أنه ابنك.

أخذت الفتاة حماد المسكين وهو يبكي في لهفة وكأنه في منتهى مراحل الجنون:

أريد ابني إنه قطعة منها تربطني بها، أريد ابني.

ثم التفت للفتاة وقال:

هل التقينا من قبل؟

قالت له:

لا أظن ذلك.

لكنها كانت قد أعدَّت الأمر من قبل كأنه صدفة؛ عندما وجَّهتْه بطريقة غير مباشرة للنفق؛ ليرى العامة موهبته على حدِّ زعمها؛ والتقطت لها صورة معه وكتبت تحتها على الإنستاجرام: لو كنت قاضيًا لقمت بإعادة التحقيق في قضايا كبار المجرمين كي أرى من ذا الذي حال بينهم وبين أحلامهم، المجرم بالأساس إنسان كان موهوبًا وأحدهم حال بينه وبين موهبته...

كانت متابعة الفتاة لحماد ليست صدفة وإنما كانت يوتيوبر وصفحتها أيضًا على الفيس لها متابعين بالملايين، كانت قد أحضرت له فرشاة وألوان زيت بعدما رأته يهيم في شارع أبي قير، وكانت تجهز لتسجيل بث مباشر معه بعد انتهائه من الرسم.

وقد اختارت النفق حيث أنه ربما يحميه من البرد ورطوبة شوارع الإسكندرية على حد فهم حماد.

أما وقد واتتها الفرصة فسرعان ما بدأت معه البث المباشر على صفحة الفيس لتجذب المتابعين، الأمر عند بعض هؤلاء الشباب ربما لا علاقة له بالإنسانية!!.

انتفض الفيس بوك وباقي مواقع التواصل بعد تحميل ورفع أول فيديو له على اليوتيوب بعد التصريحات الرسمية الأخيرة في المؤتمر الصحفي الذي زلزل الكرة الأرضية وأمسى حديث الدنيا.

وبعد أقل من دقائق كانت السلطات المصرية قد أودعت حماد في مكان آمن؛ وفور دخوله ذلك المكان الآمن جرحَ ذراعه وغمس إصبعه في الدم وكتب على الجدار: «متى يمكن أن يؤدي العشاقُ اليمينَ الدستورية أمام الحب؟!.

وتم تفعيل هاشتاج زلزل الفيس بوك وهو(#من حق المصري أن يرى ابنه كما سترى اليهودية ابنها!!).

قبضت الشرطة المصرية على الفتاة وتم حذف الفيديو، لكن الأمر خرج عن السيطرة لأن الفيديو أصبح في كل مكان وعلى كل الهواتف وأصبح الجميع يتبادلونه على الرسائل وحقق ترينذ لم يحدث له مثيل.

شعرَت وزارة الداخلية المصرية أن مركب الأحداث لا يسير بعفوية مع اتجاه الرياح وإنما ثمة محرك يجعلها تمشي في اتجاه مريب بنظام مخطط.

الأمين العام للأمم المتحدة في كلمة له بخصوص الوضع المتفجر في شوارع الإسكندرية: نحن نثق أن القيادة السياسية في مصر قامت بالقبض على معظم الأطراف فقط لوضعهم في منطقة أمان ثم البدء في البحث عن حلول هادئة ومفاوضات تتسم بصوت العقل بعيدًا عمن يستغلون الفرص لكي يصنعوا لأنفسهم تمثالًا أو يظهروا كأبطال.

صدمة الأمر الواقع.

وفد أمريكي رفيع المستوى على مائدة الحوار مع رئيس مجلس الوزراء؛ يريدون محمد ثم يؤجل حوار جلعاد لحديث آخر.

بلغ الكلام القيادة السياسية فاتصل الرئيس برئيس مجلس الوزراء:

سيادة الرئيس إن....

اجلس على الكرسي أثناء الحوار يا دولة رئيس مجلس وزراء مصر.

ماذا تقصد يا سيدي الرئيس لقد كنت....

قاطعه الرئيس للمرة الثانية: على مائدة الحوار التي تعقد لا تصدق أن الطرفين يجلسان على الكراسي وإنما طرف على كرسي بالشوكة والسكاكين وعلى المائدة يتمدد الطرف الآخر.

استئناف المفاوضات؛ تم الاتفاق على:

أولًا سيتم تبادل الشابين في تمام الساعة الرابعة مساءً في مطار برج العرب وذلك فور وصول الشاب اليهودي جلعاد على طائرة خاصة قادمًا من الولايات المتحدة الأمريكية.

ثانيًا: ولأن كل منهما قد بلغ مبلغ العقل والرشد فلكل واحد منهما اختيار حياته الخاصة واختيار من يسكن معهم أو أي دولة يريد.

في حال إذا اختار الشاب اليهودي جلعاد مصر يتم منحة الجنسية المصرية وتسحب منه الجنسية الإسرائيلية على أن تضمن الحكومة المصرية حمايته ضمن برنامج حماية الأقليات حتى يصبح من نسيج الشعب.

وفي حال اختيار الشاب الداعية المسلم محمد لإسرائيل يتم منحه الجنسية الإسرائيلية وتسحب منه الجنسية المصرية على أن يُضمن له في إسرائيل ما تم ضمانه مع الشاب اليهودي في مصر.

ليس من حق أيٍّ منهما التراجع بعد مرور ثلاثة أشهر من التوقيع.

حظر النشر في وسائل الإعلام بأنواعها المختلفة ضمانًا لحماية حياتهما الخاصة وعدم مطاردة الصحفيين لهما.

وفي الساعة المحددة لم تتمكن الشرطة المصرية من صد تدافع الشباب الذين صاروا بالملايين، يريدون حضور الحدث التاريخي الذي يشبه طلوع الشمس من المغرب.

تم التأجيل، وخرج اللواء المسئول إلى الشباب بحضارة وأدب وطلب منهم النظام وأن العالم يتابعنا ويعرف أننا أمة تحترم النظام حتى في أشد أوقات الفوضى.

وفي أقل من دقائق كان الشباب والفتيات قد أمسك كل واحد منهما بيد الآخر وصنعوا أمام المطار جملة هي أجمل كلمة قيلت في تاريخ الدنيا « لا إله إلا الله»...

وقف الناس يتابعون خارج الصالة وعلى جانب وقف محمد الشاب الداعية الإسلامي العظيم قبل أن يتغير اسم الأب وربما اسمه_ الله أعلم

كيف ستجري الأمور_، ويقف بجانبه الذي كان أبوه وهو المدعو (حماد السيد عبد الرحيم السنهوري).

بينما على الجانب الآخر يقف الشاب اليهودي الأصولي المتدين جلعاد آرييل بيريز قبل لحظات من تغيير اسم أبيه وربما اسمه _الله أعلم كيف ستجري الأمور_، وكان يقف بجانبه ذلك الذي كان أبوه وهو المدعو الحاخام (آرييل بيريز) و (نيريت) التي كانت (أمه) التي تقف وكأنها لم تمرض يومًا أبدًا وقد عادت كأنها بنت العشرين ربيعًا.

بدأت مراسم التبادل الإنساني في جو من السلام والحذر الشديد.

تقدم الشاب اليهودي جلعاد في الوقت الي تقدم فيه الداعية الإسلامي محمد حتى التقيا في منتصف الطريق.

لقد التقيا من قبل يوم دهس ساندي، والآن لقاء آخر، ابتسما في الوقت ذاته وتصافحا في الوقت ذاته لكن لم يلاحظ المتابعون أن عناقًا قد حدث بينهما.

ثم تتابعت الخطوات؛ كلٌّ يمضي نحو عناق مجهول وشوق جارف.

محمد وصل ووقف أمام أمه التي شدته وعانقته طويلًا جدًّا جدًّا وهي تبكي وتقول:

هؤلاء الحمقى جعلونا نقف بزاوية لا نرى فيها غير الظلام؛ لم يعلمونا أن حب الحياة أيضًا عبادة؛ الآن نقف ونصلي باتجاه النور.

حماد شد جلعاد من ضفيرتيه وجذبه قريبًا من عينيه وتفحّص ملامحه وعانقه وهو يصرخ صراخًا أبكى المتابعين للحدث الكبير.

خطيبة محمد لا تزال تقف بجانب حماد، لم يصرِّح لها الأمن المصري بالمرور ولن يصرح إنها خارج الاتفاق، كانت تحتضر من سكرات الوداع وكأن عينيها تصرخ بصمت:

ألا ترى أن الله يعيد المخلوقات سيرتها الأولى؟!، فمثلًا أنت مخلوقٌ من تراب إنما أنا مخلوقة منك ولذلك عندما تموت ستعود إلى التراب ولكنني سأعود إليك، عيناك سيرتي الأولى.

التفت محمد وأشار لها برجولة أن تتماسك ثم مضى يودع الجماهير المحتشدة وعشاقه من مختلف أنحاء مصر والعالم عرب وأجانب بكاميراتهم وهواتفهم النقالة.

صديق جلعاد لايزال واقفًا بالجانب الآخر وهو يحتضر من سكرات الوداع ولم يصرح له الأمن الإسرائيلي بالمرور ولن يصرح إنه خارج بنود الاتفاق، التفت جلعاد وأشار له بشجاعة أن يتماسك ثم مضى يودع الجماهير المحتشدة لمشاهدة الحدث التاريخي العظيم والذي لا يحدث إلا مرة واحدة في تاريخ الدنيا.

مرت عدة ساعات اشتعلت فيها مواقع التواصل بأسئلة كان أهمها كيف ستكون الأسماء وكان المنشور الذي نشره جلعاد على صفحته الخاصة «

أحدهم زرع شيئًا غير الدين في تربة صالحة لشرب الدم والاحتفال برقص الضحايا بعد الذبح» قد حقق صدى هائلًا وتناقلته وكالات الأنباء العالمية.

ونزل المطر دافئًا وانطلق محمد في حضن أمه الطائر إلى بلاد غريبة وها هو الآن على مشارف النطاق الجوي الإسرائيلي.

ووسط حراسة مشددة وأمام الكاميرات وقف اليهود يستقبلون الوافد الجديد بالسلام والعناق، وانتهت مراسم الاستقبال الإنساني حين ركب محمد السيارة بصحبة أبيه آرييل بيريز وأمه منطلقين إلى بيتهم.

لم يقل موكب استقبال جلعاد وهو في صحبة أبيه عن الموكب السابق إلا قليلا، لكنه كان حافلًا وصاخبًا.

وفي موعد صلاة العشاء كان الحاخام بنفسه يفرد لابنه سجادة الصلاة ويقول له هذا الركن من بيتي هو مسجدك الذي تعرف فيه الله.

وكان قد تشاور مع الأم في هذا الأمر من قبل.

باتت الأم في حضن ابنها محمد وكأنه كان عملية زراعة كبد ناجحة.

أغلق حماد على ابنه الغرفة وقال له:

أنا على جهل عظيم بكيفية صلاتكم لكنني على الأقل الآن أطلب منك أن تغلق عليك هذه الغرفة واعتبرها معبدك الذي تعرف فيه الله.

وبات الأب حماد في حضن ابنه جلعاد وكأنه كان عملية زراعة قلب ناجحة.

ثم ما لبث المطر أن تحول إلى ثلج.

يمكنك أن تقف تحت المطر بدافع الحب كالعشاق لكن لا يمنكك احتمال الثلج حين يتساقط إلا إذا كان الحب على أشده.

مر الوقت.

هدأ فوران المشاعر رويدًا رويدًا.

تعبت الإنسانية ثم غفت ثم ذهبت في نوم عميق ثم لا نعرف إن كانت ستستيقظ أم أنها ماتت.

أصاب التوتر محمدًا قليلًا مما رآه من عاداتهم ومن النظرات المريبة من عيون المارين في الشارع صباح أول يوم له في حي اليهود، وكأن هناك غيظ ما يوشك أن يتحول إلى شتائم.

حوار مقتضب بين محمد وأبيه:

حاوِل أن تتعايش رويدًا رويدًا ستعتاد الأمر.

كيف لا يمكن أن تصاب على الأقل بالفزع بعد أن ينادي عليك أحدهم أن المنطقة التي تمشي عليها بهذه الطمأنينة مزروعة بالألغام.

وبينما كان يتصفح دخل صفحة خطيبته سلمى فوجدها كتبت منشورًا على صفحتها:

لا تسمح لأحد في أي زمن للحكاية أن يحملك على كتفيه مهما التصقَتْ الروح بالروح أو ذابت؛ وإنما تمشي معه قدمًا بقدم وكتفًا بكتف وأن تقرأ على روحك بين الحين والآخَر نصف التشهد الأخيِّر وتلقي عليها السلام،

حتى إذا جاء الفراق بوجهه القبيح لا تُضطَّرُّ للزحف مشلول الضحكة مشنوق الرئتين والوجع يطعن من كبد الروح إلى حبّتيّ عينيك يوم تتحجّر في الأحداق الدموع».

فعلَّق أحد المتابعين في أسفل المنشور:

ولماذا تعتقدين أنني سأزحف على بطني إذا تعرضْتُ للغدر لمجرد أنه حملني في حكايتي معه.

ردّتْ:

القدمان إذا حُمِلَ صاحبهما يفقدان القدرة على المشي رويدًا رويدًا حتى يعجزان تمامًا.

فتابع ذلك الذي يعلق في الردود يكتب:

ولكن يمكنني أصنع جناحين.

فكتبت ترد عليه:

لا تصدق أن أحدًا يملك القدرة على الطيران غير الطيور؛ إذا فُقِدَتْ أقدامك لن يكون أمامك غير الزحف على بطن الروح.

أما عن حي سيدي جابر الذي يسكن فيه جلعاد مع أبيه فحدث ولا حرج.

الفضول يقتل الجميع ليرى اليهودي وهو يمشي أو يتكلم أو يتعبد، لكن قلب هذا المجتمع رافض ولافظٌ لهذا الجسم الغريب.

وتحرك جلعاد مع أبيه حماد لأول مرة في الشارع باتجاه البحر، ومن غرائب الصدف أن أول من تراه هي سيدة من الفلاحين كانت تبيع الجبن والبيض على ناصية إحدى الشوارع الفرعية؛ لم يعجبها شعر جلعاد؛ وبالطبع هي تجهل إن كان يهوديًّا أو غير يهودي؛ فقد ظنت أنه أحد شباب هذه الأيام الذين يسايرون تقاليع الموضة فقالت باستنكار:

سيظل يتشبه بعض الشباب بالفتيات حتى يمشي الواحد منهم وكفّيه على ظهره ويشعر بالتقيؤ ويقول له الدكتور: «مبروك أنتَ حامل».

لم تمر الجملة بسلام من أذن حماد؛ فقد كانت أول مرة لمظهر بهذه الطريقة لمنظر ابنه!!.

وتصادف أن قابلتْهم فتاة فارهة؛ ولاحظ الأب أن ابنه يضع عينيه في الأرض ويغض بصره مثل المسلمين؛ فابتسم الأب وتعجب؛ لقد كان يظن أن اليهود المتمسكين بدينهم عراة زناة ومثليين و..

والعجيب في الأمر أن أخلاق محمد بالتمام والكمال قد أثارت إعجاب أسرته الجديدة؛ لا سيما وأنه يتوضأ خمس مرات ويعتكف ذاكرًا لله وحينما شاهد صدم سيارة لأحد الأطفال هرول فزعًا يقدم الإسعافات الأولية في

بضع ثوانٍ؛ ولولا أن الله جعله سببًا في حياة الطفل لمات مقتولًا وهو ينزف بانتظار الإسعاف.

وفي الشرفة وقف الحاخام بفخرٍ يطالع ابنه محمد وهو ينقذ الطفل ويقول بحب:

يا للهول يا زوجتي؛ لقد كنت أظن أن المسلمين قتلة؛ وإذا رأوا يهوديًّا سال لعاب الانتقام في قلوبهم!!.

قالت:

وأنا كنت مثلك لم نعرف عن المسلمين غير تاريخ معاركهم الدموية على الخلافة وكأن أحدهم كان يقصد أن يظهرهم دمويين وسفاحين، وبالأساس مجموع الكتب التي تتكلم عن الحب والسلام والحياة لا تساوي قطرة في بحر الدم الذي كُتب عنهم.

قال الحاخام بصوت مليء بالفرح:

كان يجب أن يتم الترويج للمسلمين الذين يشبهون محمد.

ثم تنهد فرحًا وراح يقول:

كل يرى بعين قلبه، وقلوبنا في غيظ وحقد عليهم؛ ولهذا فنحن تلقائيًّا نتجاهل ما نراه فيهم من حب وسلام ونركِّز فقط على ما يعيبهم؟!.

لقد جعل محمدٌ منك يا حاخام اليهود رجلًا مختلفًا تنظر إلى الحياة بحيادية شديدة.

والله إني لأحبه يا زوجتي الحبيبة إنه يشبهكِ جدًّا.

أحبك في الرب حبيبي.

وأنا أحبك وأحبك محمدًا.

.. المصيبة!!!

في الشرفة المجاورة لبيتهما كانت تقف امرأة عجوز من نساء اليهود المتشددين تتنصّت.

ونقلت الكلام حرفيًّا لجارتها في الشرفة التي بجانبها (أنه يحب محمدًا) والتي بجانبها نقلت للتي بجانبها وكبرت الشائعة إلى أن وصلت في إحدى الشرفات أن آرييل بيريز يحب محمدًا رسول المسلمين، فسألتها جارتها:

هل تقصدين محمد ابنه أم تقصدين محمدًا بن عبد الله رسول المسلمين؟

لا أدري، حتى لا أكون كاذبة.

وعادت الشائعة للطريق العكسي في البحث عن المصدر الأول للشائعة من داخل إحدى التجمعات لكبار اليهود المتشددين في الحي.

قال الحاخام في التحقيق الخانق الذي فوجئ به:

كيف تجرءون على قول هذا الكلام، محمد ابني وأنا أبوه وعلاقتنا علاقة الكبد بجسم الروح.

واستطاع الحاخام أن يفلت من التهمة الموجهة إليه بأعجوبة.

لكن أمسى في نفسه أن الوافد الجديد لا يبشر بخير؛ لا سيما وأن وجوده بات يهدد الدين والعقيدة.

ونقل ما حدث لزوجته التي هبت تحتضن محمدًا خشية أن يضيع مرة أخرى.

.. وكما حدث في إسرائيل؛ انتهت علاقة الناس في مصر بالإنسانية وتقبل الآخر فور اختفاء الكاميرات وحظر النشر بجميع أنواعه.

مر الوقت.

هدأ الفوران رويدًا رويدًا.

عادت الإنسانية إلى مكانها الطبيعي في الجحيم.

لقد صار نزول جلعاد في شوارع الإسكندرية أمرًا غريبًا، كابتلاع بطن لقطعة من الزجاج.

مرت الثلاثة أشهر في غمضة عين كما يقولون.

بات حماد أمام وزارة الداخلية في القاهرة ليأخذ تصريحًا بنسب ابنه إليه؛ ابنه الذي يشبه ساندي كبد القلب.

حصل على التصريح.

طار من الفرح.

وكذلك أم محمد اليهودية.

لا شيء سيفرق بيننا يا محمد، حتى ولو قال المفسرون أنه لكم دينكم ولي دين مقصود بها أنه لي ديني الذي سيلقي بي في قعر جهنم وأنه لك دينك الذي سيدخلك الفردوس!!

اهدئي يا أمي لنحسن التصرف!!

ماذا تقصد ب «اهدئي»، وربي لن أهدأ، امنحني الشرف لأموت وأنا أقاتل كفار الإنسانية بدلًا من أن أموت وأنا مؤمنة بدين غير دين الله.

كلامك أشعر أنه من قلبك لأبواب السماء!!

أيها الدرويش لا تهزأ بأمك.

لا يا أمي لا أهزأ؛ أقسم بمن أعبد أن حديثك حديث عميق وسأنشره على حسابي على الفيس بوك ليعلم الناس قلبك الجميل.

فكتب محمد على الفيس بوك (قالت أمي» امنحني الشرف لأموت وأنا أقاتل كفار الإنسانية بدلًا من أن أموت وأنا مؤمنة بدين غير دين الله»).

المنشور حقق تريند لم يحدث في تاريخ الانترنت على الإطلاق.

الأم تحصل على جائزة نوبل في السلام بعد هذه الجملة.

لكن المفاجأة أنها أخذتها مناصفة بينها وبين من؟

بينها وبين حماد بعد أن التقطت له فتاة اليوتيوبر فيديو وعدة صور وهو يرسم صورة ابنه جلعاد بضفائره ولباسه اليهودي على جدار أحد المساجد

الشهيرة في المدينة!! ومكتوب أسفلها « ما كان ينبغي لك أن تقفي شاهدة غيابي على حافة كحلِ عينيكِ معرِّضًا للهلاك روحي».

اعتبروها عناق بين المسجد واليهودي!!

لم تلفِت الصورة أنظار المارين لأنه رسمها على الجدران الخلفية للمسجد والتي لا يمر من خلالها العابرون.

في النهاية؛ إنها كانت جائزة نوبل في السلام لكنها كانت بداية الحرب.

عرف العالم مكان الصورة التي حصد صاحبها نوبل في السلام.

أحد الخطباء على منابر المسلمين وهو يصف نوبل في السلام والحرية القاتلة: صدّروا لنا العسل الذي قتلهم واحتفظوا بالسم الذي يبقيهم على قيد الحياة.

لم يهدم الناس المسجد وإنما هدموه من جذوره وأحرقوه احتجاجًا على تنجيس الجدران على حد قول بعضهم!!.

محمد يقف على باب الحي بعد عودته هو ووالدته من استلام الجائزة، ولا يعلم ما السبب الذي دفع السائق للوقوف كل هذه المدة ولم يدخل الحي.

هل هناك زحام؟

السائق ردًّا على سؤال محمد:

لا ولكن..

ولكن ماذا؟

سكان الحي يشيرون لي بالتراجع ويهددون بإحراق السيارة بمن فيها إذا تقدمنا خطوة واحدة احتجاجًا على أنك مسلم، وبعضهم يتهكم ويذكر اسمه الجديد (محمد آرييل بيريز!!) وبعضهم يسخر ويقول (ما رأيك أن تتوضأ ثم تذهب إلى حائط المبكى).

واندلع الضحك وانتشرت النكات المعجونة بالسخرية القبيحة.

نزل محمد من السيارة واعتقد أنه يستطيع التفاهم وإلقاء خطبة تتصدع لها الصدور.

الصدور عليها مخلفات سنين من سواد الأجداد وأجداد الأجداد وتاريخ من الدم بين الفريقين يغرق المحيطات!!.

يمكنك إعادة تدوير مخلفات القمامة أما بعض البشر فإعادة تدويرهم يعيد إنتاج قمامة مضاعفة.

تقدم كبير الثائرين اليهود وأشار للجميع بضبط النفس؛ فالتزموا أوامره وانحنت له رءوسهم ثم قال لمحمد بحكمة:

ليس بيننا وبينك شيء شخصي يا محمد، نحن نخاف أن تفتن شبابنا في دينهم، ومن حقنا أن نطالبك بمغادرة إسرائيل وأظن أنك متحضر كفاية لتعرف أنه يجب عليك أن تحترم حياتنا وعقيدتنا وديننا والبلد الذي نسكن فيه.

كان الحاخام الذي تحدث مفوَّهًا وتكلم كلامًا ألجم به فم الداعية الذي تماسك وتوسَّل في نفسه إلى الله أن يلهمه جملة مفيدة يرد بها هؤلاء القوم، ثم قال:

أما وقد قلت كلامًا رائعًا ألجم لساني وكتّف قلبي بحضارة حديثك وحلاوة معناه إنما..

قاطع الحاخام محمدًا ولم يترك له الفرصة لطرح الأسئلة والتفاوض ثم صرخ:

إنما بيننا وبينكم كما بين الجنة والذين كفروا بالرب.

إنه ذكي كفاية، ومن الذكاء ألا يترك داعية بحجم محمد ليسلب الناس ألبابهم أو يبدل دينهم كما يظن.

انفلت أحد الجماهير الغاضبين من خلف الحاخام وقال لمحمد بصوت غليظ:

في القرآن «لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود» وظل بعدها يثرثر بما لم يفهمه محمد.

شعر محمد بأنها الشهادة أو أنهم سيدهسونه مثل ساندي فقرر ألا يتراجع كي لا يتقدموا وإنما ثبت رابط الجأش عظيم الهيبة مرفوع الرأس وقاطع للذي قال جزءًا من الآية:

مَن كان فمه محشو بالكلام فإن أُذنيه لن تسمع بالشكل المناسب؛ تقدَّم أيها الساذج وبارِزني رجلًا لرجل.

فتقدم الشاب مدفوعًا بالحمية الدينية وسط غضب الحاخام منه؛ الحاخام كان لا يريد مباراة في الحوار؛ فهو على يقين أن ذلك العربي متمكن من ناصية اللغة وبلاغة عسل الكلام، لكن على أية حال شاء الله أن تقع المبارزة فكرر الشاب اليهودي وسط حشود المنصتين نصف الآية مرة أخرى قائلًا:

قرآنكم الكريم وبكل حضارة كما علمني ديني أحدثك أيها الداعية المسلم، قرآنك الكريم أقر لكم بوضوح «قوله: لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود».

إلهكم الذي تعبدون جعلنا أعداء وجعل أطفالنا أعداء وجعل الجنين في بطن أمه عدوًا لكم من قبل أن يولد!!.

تبسم محمد وصرخ بحماسة مهيبة:

أكمل الآية إن كنت حافظًا.

لا لست حافظًا.

لم تحفظ لأن منكم من رباكم على ما يشعل بيننا العداوة واختار من كتاب الله ما ضحك على عقولكم به.

لا، لقد سمعت كل المفسرين عندكم ولم يذكر واحد منهم غير أن الآية صريحة وواضحة ولم يذكر حتى أنها خاصة بسياق اجتماعي وزمان محدد ويهود محددين وإنما عموم اليهود فما قولك؟.

هل سمعت تفسيري؟.

عفوًا؟!، هل لك تفسير مختلف؟.

نعم، وإلا ما كنت قد عشت بينكم كواحد منكم.

وما تفسيرك؟.

أجاب محمد:

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم- بسم الله الرحمن الرحيم «لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون».

هل تعرف سبب المودة التي بيننا وبين الذين قالوا إنا نصارَى؟

الشاب اليهودي وهو يتذكر الآية:

نعم، «أنهم لا يستكبرون».

محمد:

ماذا لو كان اليهود لا يتكبرون؟؛ ستنتفي بيننا وبينهم أسباب العداوة، لقد كان أجدادكم جيران لمحمد رسول المسلمين، وكان النبي ينصر اليهودي عندما كان على حق وكان يقتص من المسلم لو كان على غير الحق!!، إن كنت لا تعلم أن اليهود كانوا جزء من نسيج المجتمع المصري فأنت جاهل بالتاريخ الذي يدرسه أطفال المرحلة الابتدائية في مصر.

ثم انطلق محمد يزلزل الجمع بصوته:

العداوة مثل أفعال المشاركة لكنها تحتاج لثلاثة أطراف؛ أما الأول العدو وهو المعتدي الجاني وأما الثاني المُعادَى وهو المُعتَدَى عليه أو المجني عليه وأما الثالث فهو سبب العداء والشيء الذي نختلف عليه؛ انظروا إلى حلاوة اللغة حين أشار أن اليهود هم الطرف المعتدي والجاني، وتتساءلون ما الحلاوة في قرآن يتهمنا بالعداء؛ وأقول لكم جميعًا؛ ماذا لو أنه يقف خلف ظهرك الآن شخصٌ يمسك خنجرًا وهو في طريقه أن يطعنك غدرًا ثم قمت بتنبيهك؛ فهل تفرح؛ الإجابة نعم بالطبع؛ أنا لا أطالب الإسرائيليين بأن يتجردوا من الخناجر لكن لا توجهوها إلى أبرياء؛ ليست لدي أنا شخصيًّا أدنى مشكلة أن يكون لأي شتات وطنًا لكن لا يتجمع هذا الشتات في أوطان الآخرين بحجة أي شيء تم تحريفه على هيئة عقيدة؛ إذا استطاع العدو أن يتراجع عن كبريائه وغطرسته وأن يتراجع عن حدود الآخرين ثم يكون جارًا لي فلن يكون أشد الناس عداوة ولن يكون ذلك الجار المسالم عدوًا أصلًا؛ وفي العامية المصرية يقولون: النبي وصَّى على سابع جار».

شعر الحاخام بالحنق الشديد ونظر في غضب بالغ إلى الشاب اليهودي المبارز بعد أن بدا عليه السحر ثم قال:

لن يُحرق اليهود مرةً أخرى.

قال محمد:

أنا ضد ما فعلتموه بهتلر كما حكى مؤرخون؛ لكنني أيضًا كإنسان مسلم ضد المحرقة إن كانت قد وقعَتْ.

قال الحاخام للجماهير المحتشدة:

انظروا إنه يشكك في المحرقة ويقول «إن كانت قد وقعت».

ضاقت الدائرة على محمد وارتفع الصخب واشتد الاندفاع فقال للحاخام:

صدق الذي قال» ليست العدالة بما تراه بأم عينيك ولكن بما تستطيع أن تثبته للعميان؛ كثيرون لم يؤمنوا إلا يوم الفتح.

بدا كلام محمد يشبه الطلاسم بالنسبة لهؤلاء لكنه انطلق محمد يدوّي في قلوب المزدحمين حوله:

أيها الناس لم يخلق الله الأرض غابة لأننا لسنا حيوانات ولو فكرتم قليلا وراجعتم الأنساب ستجدون أن لنا أبًا واحدًا وهو آدم، نحن في الأصل أبناء نفس الأب ونفس الأم، وما فرقنا إلا التكبر وحب الهيمنة والسيطرة والذين يتكلمون في الدين بما لا يفقهون؛ وإنه لأمر عظيم أن نتكلم في الدين بغير فقه.

أثناء حديث محمد الأخير كان الحاخام قد تراجع ويعتقد البعض أنه قام بدفع بعض الشباب نحو محمد؛ فعمّت الفوضى، واندلع دخان كثيف، وفوجئ محمد أن أحد شباب اليهود الشرفاء يعطي محمدًا مسدسًا ويقول له:

ألقِ في وجهِ القومِ إحدى مفرداتهم القذرة لعلهم يشعرون.

فتعجب محمد من موقف ذلك الشاب الذي يرفض شتائم قومه بهذه الشجاعة ثم قال لمحمد في أذنه:

انظر في عيون المؤمنين بك حتى تتحول ذراعاك إلى جناحين وتطير في السماء وانظر في جبهة الذي تعتقد أنه عدوك؛ سيضع عينيه في الأرض.

فلما اشتد الهجوم دفع محمد باتجاههم وقال:

دافع عن نفسك إن لزم لأمر يا أخي في الرب يا أخي في الرب يا أخي في الرب...

قنبلة مسيلة للدموع لتفريق اليهود المتشددين كي لا يقربوا محمدًا بعد أن تقدم أحد الضباط وهو يحاول أن يقنع محمدًا بتسليم المسدس دون إطلاق نار.

لم يكن محمد محتاجًا لإقناع؛ فهو لن يسفك دمًا ولو دهسوه مثل ساندي

التاريخ يعيد نفسه.

يريدون دهس الداعية تحت أرجلهم.

ثمة قتيل تحت أرجل المتشددين ينام في بركة من الدم لكنه ليس محمدًا، يبدو أنه سقط فدهسته الأرجل.

أبو محمد (الحاخام) قيد الإقامة الجبرية.

قام الجنود بحجز المتطرفين اليهود عن محمد وأجبروه على ركوب السيارة مع أمه وتم اقتيادهما وسط عربات مصفحة إلى مكان آمن لأجل غير مسمى.

البوليس الإسرائيلي يحقق مع اليهود في واقعة دهس أو قتل اليهودي الذي كان بينهم.

من جهة أخرى وفي سيدي جابر بالإسكندرية.. جلعاد محاصر مع أبيه حماد والشباب الثائر يلقي على المنزل مولوتوف وزجاجات البيبسي الفارغة.

خرج جلعاد معتقدًا أنه يستطيع التفاهم مع حشود الزاحفين.

شاب مصري غاضب:

كيف يجرؤ أبوك على رسم صورتك على جدران الجامع أيها النجس.

سأله جلعاد بثقة:

هل تريد أن تبارزني رجل لرجل وكلمة بكلمة.

أجاب الشاب الغاضب باستهزاء:

نعم أنا لها.

جلعاد:

ماذا لو خرجت الآن مخطئًا وعليك الحق أنت والذين معك؟!

اعترضه الشاب المصري الغاضب:

لن تستطيع أن تخدعنا بكلام معسول.

سأله جلعاد:

ماذا لو أثبتُّ لكم أنكم مخطئون؟

الشاب المسلم:

أعاهدك أن أجبر هؤلاء على الرجوع كلٌ إلى بيته لكن قدِّم لي الدليل.

فتح الشاب اليهودي هاتفه الحديث ووجَّهه نحو جدار العمارة المقابلة ثم دعا الشباب المحتشد إلى متابعة ما يبثّه الهاتف على جدار العمارة.

التفت الشباب المصريون فوجدوا صورة سينمائية واضحة مرسلة من شاشة الهاتف الحديث إلى الحائط وهي تعرض فتاة اليوتيوبر بالفيديو الحقيقي للرسام الأجنبي الذي رسم جلعاد على جدران المسجد الخلفية.

يا للهول!!

لقد قامت الفتاة اللعينة بفبركة الفيديو ووضعت وجه حماد على جسم الرسام!!؛ هذه الفتاة تريد أن تشعل فتنة!!.

ثم استأنف جلعاد يقول بلهجة فيها سخرية:

حتى الجملة المكتوبة أسفل الرسمة ليست بقلمه إنما هي جملة لكاتب شاب ولكنكم لا تقرءون!!.

وما إن انتهى العرض حتى تراجع الشاب يضرب كفًّا بكف، بينما قال أحد الشباب:

وما أدرانا أنك لم تفبرك الفيديو الأصلي لأبيك وأن الذي معك هو الفيديو المضروب؟!.

شعر جلعاد أنه أمام حفنة فقدت عقلها؛ وكان السؤال كفيلًا بتحريك الشباب للهجوم على المنزل.

انطلق جلعاد خائفًا يجري حتى وصل إلى جذع نخلة في شارع جانبي وأخرج مسدسًا وصرخ:

من يقترب سأقتله.

فقال له أحد الشباب:

ألق ما في يدك وتعالى لن نجعلك تشعر بألم.

فقال جلعاد:

بل ستكسرون عظامي.

فقال له الشاب:

الناس لا يريدون تكسير عظامك كما تتوهم إنما يريدون قتلك فقط.

الشرطة المصرية تعتقل العشرات وتفرقهم.

جلعاد وسط العربات المصفحة والجنود المدججين الذين أخذوه وأبيه حماد إلى مكان آمن وجلعاد يقول:

أحدكم يتطوع ويخبر العرب أن السباق بسرعتهم الحالية رائع ولكنه ليس للخلف.

السؤال: هل هناك مكان آمن في العالم ولا تتوقع أن يفترسك ذئب أو إنسان أو دب متوحش؟.

.. ماذا يفعل محمد آرييل بيريز وجلعاد حماد السيد عبد الرحيم السنهوري وقد ثبتت أسماؤهما على أسماء غير التي كانوا عليها وحيوات أخرى.

دائمًا هناك حل وسط طالما أننا نفكر يا أمي.

وما الحل يا محمد يا ابني؟.

أن نستأذن السلطات الإسرائيلية ونقوم بزيارة خاطفة لمصر وننزل الإسكندرية ونجتمع بجلعاد وأبيه حماد في مكان سري ونتبادل الحوار بشكل منطقي وسليم يرضي جميع الأطراف.

عندما قلت كلمة خاطفة يا محمد شعرت أن قلبي يتم خطفه وحرقه، أوصيكَ بالله الذي نعبده ألا تحرق قلب أمك مرة أخرى عليك مهما كلفك الأمر يا بني.

لك ذلك يا أمي.

لا يا محمد عاهدني الآن.

أعاهدك يا أمي!!، اطمئني لكن..

لا تنطق هذه الكلمة اللعينة لا شيء سأتحمله بعد لكن.

تمام يا أمي.

لقد سمعت كل حلقات برنامج (يعرفون الله) على اليوتيوب كلمة كلمة وسمعتك مرة تقول حديثًا لرسول المسلمين أن الجنة تحت قدم الأمهات، أليس كذلك يا محمد؟.

.. شعر محمد بمسئوليته تجاه أمه لكنه استطاع أن يقنعها بفكرة الاجتماع مع جلعاد وأبيه بحضور زوجها الحاخام بعد التشاور مع السلطات الإسرائيلية والتدخل لفك أسْر الحاخام من أيدي اليهود المتشددين.

وقبل وصوله الإسكندرية تصفح الفيس ووجد جماعة مسيحية تحتج بشدة وتطلب جلعاد حيًّا أو ميتًا بعد نشر فتاة اليوتيوبر فيديو لرسمة له على ظهر جدران كنيسة!!.

وفي الإسكندرية وتحت حراسة أمنية مشددة بعد التشاور مع السلطات المصرية كان الاجتماع في فندق الفورسيزون سان ستيفانو.

عناق حار ولقاء سالت فيه الدموع، جلعاد والرجل الذي ربّاه وأمه، ومحمد وحماد وكانت خطيبة محمد ضمن الاجتماع وأمها؛ ولم ينسَ جلعاد أن يكون صديقه عِزرا حاضرًا.

اتفق الجميع في نهاية الأمر على أن الوضع الحالي مستحيل ولن يتقبل اليهود وجود محمد حيًّا بينهم ولو شاركهم طقوسهم ولو أن هذا أصلًا مستحيل، ولن يبقى جلعاد بعيدًا عن أيدي المتشددين في مصر ولو صلى في مساجدهم ولو أن هذا أيضًا مستحيل.

الأرض في العالم العربي خصبة لكل ما تتخيل من النبات الحامي السريع النمو؛ إن تزرع راقصة تجد شعبًا بأكمله يطبِّل، وإن تزرع متشددًا تجد أتباعًا بالجملة، وسيأتي معظم الذكور حتى ولو لم يكونوا مرضى إن تزرع أنثى مثيرة في صيدلية؛ كل ما عليك فقط هو أن تزرع وجميع هذه الشعوب الحارة ستأتي.

اتفق الجميع على عودة جلعاد لآرييل وزوجته أو على الأقل يقيم في إسرائيل إذا أحب أن يستقل بنفسه وحياته، كما يعيش محمد مع حماد أو يستقل بنفسه وحياته كما كان أو يتزوج من سلمى ويصبح له بيته وحياته.

لكنهم اختلفوا حول عدد الزيارات السنوية التي سيتبادلونها، فالأم تريدها أسبوعيًا ومحمد يرد بأن الأمر صعب.

كان محمد يخفي في نفسه عن أمه أن المجتمع المصري لن يتقبل فكرة كونه يذهب إلى إسرائيل كأنه يذهب إلى مكان عادي مثلًا وأن الكثيرين لن يسكتوا وسيتهمونه آجلًا أو عاجلًا بالخيانة وهذه التفاهات المزعومة.

فاتفقوا بعد صراخ وعويل على أن تكون الزيارة كل شهرين بواقع مرة واحدة لمدة إقامة لا تقل عن يومين يجتمعون فيها مرة في إسرائيل ومرة في مصر، وقبل نهاية الاجتماع قالت سلمى وهي تمسك بيد محمد:

هل علمتم آخر الأخبار؟

تم تحويل أوراق الثعلب إلى فضيلة المفتي بعد إدانته بتهمة الإرهاب والضلوع في تحريض الناس على القتل في الأحداث إياها.

قال محمد:

معنى هذا أن الجماعات ستقوم بحملة اغتيالات موسعة انتقامًا، وأن ظهورنا في شوارع مصر ليس بالأمر الهيِّن!!

جلعاد: إعدام الثعلب منطقي ومتوقع ولم يدهشني؛ هذا أمر لابد أنه تم الاتفاق عليه في كوريا الشمالية بين القيادتين المصرية والكورية.

محمد يرد على جلعاد معاتبًا بغلظة: لاحِظ أنك تقلل من احترام القضاء المصري، وتذكَّرْ دائمًا أنها مصر.

جلعاد بهدوء بارد: أحاول أن أقول الحقيقة، وتذكَّرْ أنتَ أن مصر هي وطني الآن؛ وأنتم كطبقة راقية لا تشعرون كثيرًا بالمواطنين المصريين؛ حين تستورد الأوطان أصحاب الأموال وتصدر أصحاب العقول؛ تعود رويدًا رويدًا لعصر السيد والأجير؛ ثم إن **البطل الحقيقي هو المواطن المسكين أيها الحمقى الذين تتحدثون عن إنجازات النجم الذي ينتقل من تكييف الشقة إلى تكييف السيارة إلى تكييف أمه.**

شعر محمد بالغربة فجأةً كما شعر بكلام جلعاد الذي نزل غير مرتب ولا علاقة له بصلب الحديث كأنه حفظ الكلام؛ أو كأنه يستفزه؛ أو ربما أراد أن يقدم نقدًا بشكل عام؛ لكنْ قطع كل هذا الشرود مكالمة دولية واردة على هاتف الحاخام يخبره فيها أحد أتباعه من خلال مصادر موثوقة بتورط محمد في جريمة قتل لشاب يهودي بطلق ناري!!.

سقط الهاتف من يد الحاخام على الأرض ثم سقط بعده، وأسرع الجميع يمسك به ويرفعه من الأرض.

عرف محمد أن ذلك الشاب الذي أعطاه المسدس وظل يكرر (يا أخي في الرب) يوم هجم عليه اليهود أثناء دخوله الحي بالسيارة لم يكن من قبيل الشهامة وإنما ليوقع به في خطة مسبوقة الحَبْك.

ورغم أن محمد لم يطلق طلقة واحدة إلا أن ذلك الشاب مضروب بنفس المسدس الذي كان في يد محمد وعليه البصمات وبالأساس ظهر في الفيديو وهو في يده.

شَرَد محمد وهو يقول:

على الأرجح أنهم قتلوه ثم ألقوه في الزحام ثم أعطوني المسدس ثم أتى الضابط بحجة أنه يقنعني بألا أتورط في إطلاق النار!!، يا للهول، يا لهم من ماكرين!!.

سلمى وهي تفتح الواتس آب: صديق لي في مقر وزارة الداخلية كتب يبلغني أن الانتربول الدولي يطلب تسليم محمد للسلطات الإسرائيلية لا سيما بعد صدور الحكم غيابيًّا بالإعدام.

حماد: كيف طبخوا الحكم بهذه السرعة الرهيبة!؟، وهل هناك أحكام إعدام أصلًا في إسرائيل؟!، لو أنه فيلم للخيال العلمي فلن أصدق هذا الهراء!!.

أما جلعاد فقد أصبح نزوله إلى الشارع مستحيلًا بعد أن استحلَّ أحد كبار دعاة المتشددين دمه وأمر بقتله وسفك دمه وذلك على خلفية العبث على جدران مساجد الله في الأرض.

ويشاء القدر أن تضع تل أبيب اسم جلعاد حماد على قائمة الممنوعين من السفر إلى إسرائيل بعد منحه الجنسية المصرية وتخليه عن الإسرائيلية.

قالت سلمى وكأنها محارب قرر الفرار:

محمد مطارد في مصر ومطلوب لدى إسرائيل وإن تم القبض عليه سيدهسونه ويصبح جثة مجهولة الهوية وجلعاد مطلوب للقتل إلا في إسرائيل التي حظَرَت أصلًا سفره إليها؛ كلنا الآن مهددون بالقتل أو الحرق بتهمة خيانة أي شيء؛ باختصار نحن عبارة عن مجموعة جنازات تتنفس الآن متجهة إلى قبور جماعية.

ثم أقنعت سلمى الجميع بأن يفر بنفسه، وأحضرت لمحمد وجلعاد ماكينات حلاقة وملابس مختلفة ليخرجوا متنكرين إلى بدروم في أسفل بيتها في زيزينيا بشارع أحمد عثمان ليروا ماذا سيفعل كل منهما.

ونظر محمد إلى حبيبته بعد عناق عنيف ثم قال:

وددت لو أشتري سبعين ألف لعبة أطفال ثم أوزعها على العجائز لنلهو بها حتى التعب ثم أرجوهم أن يحكوا لي بعض الروايات القديمة حينما كانت النهايات لا تنتهي إلا بالأفراح.

قالت:

قبِّلْني قبلةً لا أفيق بعدها أبدا؛ **قف كأن ملائكة العذاب ألقوا بك خارج حرائق جهنم ثم قيل لك صلِّ ركعتين لعل الله يعفو عنك.**

ثم انزوَت به بعيدًا؛ تخلّصت من ملابسها وأناقتها وهي تقول: افعل شيئًا إذا أصابك الجنون قبل أن يرتد إليك عقلك وتموت بأناقةٍ عند إشارة مرور لن تمر بعدها أبدًا حين تصبح خضراء.

علامات استفهام؛ أهمها ماذا يفعل محمد بغرفة مغلقة مع خطيبته.

ثم خرج في نهاية الاشتباك على الجميع يقول:

سطحيون جدًّا هؤلاء الذين يريدونك طوال الوقت عميقًا جدًّا تتحدث الفصحى ولا تدخل الحمّام.

اضطر الحاخام وزوجته للتوجه إلى السفارة الإسرائيلية بالقاهرة متخفيين في زي مصري ثم إلى محطة سيدي جابر حيث استقلَّا أول قطار وكان مراكز من الإسكندرية للقاهرة؛ وكانت فرصة ليتعرفوا بالمشاهدة المباشرة على المصريين البسطاء.

وعلى أبواب السفارة الإسرائيلية بالقاهرة تقدموا بطلب السفر العاجل إلى إسرائيل ريثما تهدأ الأمور أو يطلع لهذه العتمة شمس.

وما إن وصلا إلى مقر السفارة وتعرفَت عليهم الكاميرات حتى طارت بهم الطائرة إلى تل أبيب ومنها إلى الحي اليهودي (هيريشيام) الذي وجدوه هادئًا جدًّا، ومن الشارع إلى البيت الهادئ ومن البيت الهادئ إلى المقبرة الهادئة حيث تمت تصفيتهم بهدوء لينامو للأبد!!.

القضية ضد مجهول!!.

كان محمد قد شعر بانفراج لاسيما بعد نجاح خطة سلمى في التنكر وحلاقة ذقنه وشعره تمامًا هو وجلعاد إلا أن جلعاد فوجئ بصحيفة يديعوت أحرونوت الإسرائيلية تنشر صورته وتتهمه بالكفر على خلفية تنازله عن مبادئ دينه.

هكذا أصبح جلعاد مطلوبًا من كل دين على وجه الأرض تقريبًا.

عند حلول المساء لمَحت أم سلمى حركة غريبة في الشارع كأنها تحركات مخبرين، فعلم محمد أن البوليس المصري لن يهدأ إلا إذا قبض عليه.

هرب محمد من الباب الخلفي لمنزل سلمى ومنه إلى شقة مجاورة هي شقة أخو سلمى الذي كان يجهزها للزواج حيث بقي محمد بهذه الشقة مدة أربع وعشرين ساعة مع جلعاد دون أن يتناولا لقمة واحدة.

خرج محمد وجلعاد يتسلّلان في ظلام العمارات، لكن قلبه لم يطاوعه أن يرحل قبل وداع سلمى.

عندما دق الباب فوجئ بأمها منهارة تمامًا.

سلمى وأبوها وأخوها رهن الاعتقال بتهمة التستر على مجرمين مطلوبين للعدالة.

نظر محمد إلى جلعاد وقال له وهو يضحك كأنه أصيب بالجنون:

الخراب في مكان نذهب إليه يا جلعاد!!.

ضحك جلعاد هو الآخر بجنون على ما هو فيه ثم خرجا هائمين لا يعلمان إلى أين الطريق.

فوجئ الشابان بأسراب من الصحفيين يلتقطون لهما الصور من كل فج عميق، وما إن هربا من الصحفيين حتى فوجئا بالكثير من الشباب يرجمونهما بحجارة طريق ترام الإسكندرية الأصفر عند محطة ترام جليم حتى سالت من أرجلهم ورأسيهما الدماء وهما يهربان؛ فلما سمعا صوت عربات البوليس تيقَّنا أنها تطاردهما وأن عليهما الفرار في مكان لا يمكن لأحد أن يصل إليه.

قال محمد لجلعاد:

ڤيلا كفر عبده.

وبأعجوبة وصل محمد وجلعاد إلى كفر عبده من شوارع خلفية، وتسللا خفيةً في ظلام الشجر وتحت ظلام شرفات الڤيلات الممتدة على طول الشارع الرئيسي.

ولأول مرة منذ عشرين عامًا يدخل محمد الڤيلا، ڤيلا كفر عبده، ذلك المكان الذي كانت ساندي تعاني فيه لترى الرسالة.

كان محمد يأتي من قبل على فترت متقطِّعة ليقرأ الفاتحة ويرحل باعتبار أن الڤيلا مقام أو مقبرة أثرية يتداول الناس حكايتها، لكنه أول مرة يجرب المفتاح ويدخل ويتجول.

أغلق محمد الباب بعد أن دعا جلعاد للدخول، ثم تجوّلا في أنحاء الڤيلا المهجورة.

وقال محمد لجلعاد:

خذ مفتاح الڤيلا؛ لو كان لها صاحب سيكون أنت.

ترقد ساندي أم جلعاد في قبرها في الدور الأرضي ولكن باب هذا الدور مغلق تمامًا.

لأول مرة يشعر جلعاد بأنه قريب من أمه بهذا الحنين؛ جلس يبكي أمام بابها وينتفض حتى أغرقَ حزنه قميصه بينما كان محمد يحتضنه بشدة حتى هدأ قليلا.

افترش محمد بلاط الڤيلا واستلقى على ظهره قائلًا:

جربت كل الماركات العالمية وأحدث صيحات الموضة فوجدت أن قمة الأناقة أن أبقى على طبيعتي.

نظرات جلعاد صارت فجأةً غريبة ومريبة!!

ثم دخلا المطبخ ووجدا قطعة لحم كأنها جزء من بقرة مقضوم منها بعض القطع كأنه موضع فم أحدهم!!

دخلا الغرفة المقابلة للمطبخ فوجدا بها سرير عليه لحاف أبيض.

تليفون أرضي.

المهاجمون على زجاج النوافذ المغلقة بشبك من الحديد هذه المرة ليسوا كلاب.

إنهم بشر.

نام جلعاد على السرير وغطى وجهه باللحاف الأبيض.

دق الهاتف الأرضي.

رفع محمد السماعة.

أنا أمك ساندي يا محمد احذر ذلك النائم الملفوف في الكفن أمامك إنه ليس من البشر.

إنه ليس أمامي يا أمي الآن ولكنه استيقظ ويقف خلفي ولا أدري ماذا سأفعل.

يا محمد، قاوم يا محمد حتى آتي إليك؛ لا تمكنه منك.

قاوِم يا محمد.

قاوِم.

قاوِم.

ساندي يا ابنتي الحبيبة أرجوك استيقظي، لقد طال بك الكابوس جدًّا.

ساندي.

ساندي.

آذان الفجر.

حي على الصلاة.

حي على الصلاة.

يا للهول، ما هذه المفاجأة؟!!

إن قصة النائمة وتطورات الأحداث في المسجد الأقصى وظهور محمد وجلعاد، ليست حقيقية؛ كل هذا كان مجرد حلم طويل مرت به ساندي التي لم تتزوج أصلًا!!

أجل؛ لقد أفاقت ساندي من غياب الوعي بعد عدة أشهر ما بين المستشفى الميري الجامعي والعناية المركزية لمستشفى جبران الدولي وهي الآن على النجيلة الفاصلة بين حارتيّ الطريق المواجه للمستشفى من جهة والمسجد الذي يرتفع منه الآذان من جهة أخرى؛ وحدث كل هذا بعد طرد المستشفى الخاص لها على خلفية نفاد مال أبيها ورصيد تأمين المستشفى وتراكم ديون كثيرة.

ويوم الطرد استدعاه الطبيب مدير المستشفى ليرى إن كان لديه أية ممتلكات للرهن فوجده الدكتور عبد الرحمن يجلس بتكبر فقاطعه عبد الرحمن في أسف وقال وهو يغادر المكتب فجأة:

إذا رأيتَ الرجل قد نجح ثم اتّكأ يتحدث لا تسمع له ثم لا تسألْني عن السبب.

يتحول الطبيب الإنسان إذا امتلك مستشفى خاص إلى تاجر حيوان في لحظة يدفع ثمنها الفقراء من المرضى.

ساندي كانت وسائل الإعلام قد تداولت غيبوبتها الطويلة وتهافت الناس ثم ما لبث أن اختفت الكاميرات فاختفى الناس بعد أن أكد الأطباء أن موتها مؤكد وفرص الحياة تحتاج إلى معجزة؛ وظلت تفترش الشوارع مثل كثير من المشرَّدين.

عدد المشرّدين نفسيًّا أكبر من أن تحتويه دور رعاية كوكب الأرض؛ كأن أحدهم يسرق السكن من صدور الناس.

دموع غزيرة لكنها هذه المرة دموع الأفراح على تجاعيد وجه أبيها رئيس قسم التاريخ بكلية الآداب جامعة الإسكندرية.

أما أمها الآن تزغرد وتبكي.

حرَّكت ساندي فمها بأعجوبة وحركت شفتيها وقالت:

أبوها لا يزال يحتفل بالدموع.

الزغاريد لا تزال تنطلق ممزوجة بالنواح الذي يخرج من صدر الأم.

توقفت السيارات أخيرًا.

نزل أصحابها يلتقطون الصور.

وفجأة شم الصحفيون رائحة الحكاية المعجزة؛ فلم تمر بضع دقائق حتى حوصرت الأسرة بآلاف الصحفيين.

مفاجأة جديدة صادمة!!

وسط زحام المتسابقين على تسجيل كلمة مع ساندي من المذيعين والمراسلين من جميع أنحاء العالم وتحت فلاشات الكاميرات استيقظ الدكتور عبد الرحمن جابر والد ساندي وهو يضع يديه على عينيه من فرط فلاشات الإضاءة.

يا للهول؛ إن قصة النائمة وتطورات الأحدث حتى المسجد الأقصى وظهور محمد وجلعاد واستيقاظ ساندي من الكابوس؛ كل هذا كان مجرد حلم للدكتور عبد الرحمن وليس حقيقة!!

فهرولت زوجته التي كانت تعد له الغداء في المطبخ وهي تمضغ اللبان وتغنِّي بقميص نوم خفيف لحظة سمعَت صراخه بعد انتباهه من الكابوس اللعين.

وفوجئت بكميات رهيبة من العرق قد أغرَقَت وجهه وملابسه وهو ينظر إليها وكأنه واحد من أهل الكهف استيقظ في عالم غير الذي كان فيه، ثم ابتلع ريقه وخفَّت بالتدريج ملامح دهشته بينما زوجته تناوِله كوب المياه وهو يحاول أن يعتدل من نومه على سريره وهو يقول:

أين ساندي يا حنان؟!!

قالت حنان وقد توقفت عن مضغ اللبانة من الدهشة:

ساندي في غرفتها على التليفون مع ابنة خالتها ملك؛ أنت تعرف ثرثرة المراهقات؛ ماذا بك يا رجل؟!

نفض الدكتور عبد الرحمن اللحاف عن نفسه وانطلق يجري كالريح باتجاه غرفة ساندي وفتح الباب فجأة وخطف منها سماعة التليفون الأرضي وألقى بها بعيدًا وقال لابنته ساندي:

إنها ليست ملك!!

فُزِعَت ساندي من اقتحام أبيها لغرفتها وقالت لأبيها:

ما بك يا أبي؟!

وفجأة ضحك الأب ثم اعتذر لابنته وزوجته التي عادت للمضغ وقال:

لقد كان كابوسًا غريبًا يتكون من عدة كوابيس داخل نفس الكابوس؛ أحاول أن أتذكر..

فقالت زوجته حنان:

لقد لاحظنا عندما عدتَ من الجامعة مبكرًا على غير عادتك أنك مرهَق؛ وتركتك تبدِّل ملابسك وذهبت أعد لك فنجان قهوة لكنني عندما عدت لك بالقهوة وجدتك مستلقيًا على بطنك ببدلتِك وحذائك كما جئت؛ حتى أنني لم أتمكن من فك رابطة عنقك، لكنني بالكاد نزعتُ من قدميك فردتي الحذاء ووضعت عليك البطانية الخفيفة وقلت لنفسي لعلك تحتاج للنوم؛ وأغلقْت عليك باب الغرفة.

.. حكى الأب لزوجته وابنته بعض تفاصيل الحلم الغريب دون أن يحكي عن النائمة المرعبة حتى لا يفزع ابنته ساندي الطالبة بالفرقة الأولى بكلية التجارة باللغة الإنجليزية.

.. خرج الأب من غرفة ساندي وهو وزوجته يضحكان، ثم هرولت ساندي تلتقط سماعة التليفون فوجدت ملك ابنة خالتها قد أغلقت الخط؛ فعادت الاتصال بها:

آلو.

أعتذر لك يا ملك.

لا عليك يا صاصا ولكنني خشيت أن يكون أبوك قد سمع ما حكيناه عن ذلك الطالب الوسيم المغرم بك في الفرقة الرابعة.

أنا عن نفسي قلت ذلك وقلت لنفسي أخيرًا سيكشف أبي فضائح ابنته التي لا يعرف عنها إلا كل خير.

ضحكت ملك ضحكة عالية وسألت:

لماذا إذًا اقتحم عليك غرفتك وخطف منك السماعة؟.

أجابت ساندي:

لقد كان يحلم حلمًا مثيرًا جدًّا.

تعجبَت ملك:

وهل حكى لك تفاصيل الحلم المثير هكذا ولم يخجل أو تخجلي!!.

ضحكت ساندي:

ليس ما جاء في ضميرك الشريف أيتها الطاهرة!!؛ كل ما في الأمر أنه أثناء المحاضرة التي كان يلقيها على طلابه في كلية الآداب عن تاريخ الأديان السياسي سأله أحد الطلاب:

لماذا تدِّرسون لنا كل هذه التفاصيل الدموية بين الأديان والحضارات وتحمِّلون هذه الأجيال عبء علاقاتكم القبيحة وعقولكم المغلقة؛ لماذا لا

تذهبون بهدوء إلى الجحيم لتتركونا نقيم علاقات نظيفة تتناسب مع زماننا وشكل الأرض في عصرنا؟!

فقال له أبي في صرامة معجونة بالغضب:

كيف تجرؤ ..؟!

فقاطعه الطالب بصوت أعلى:

كيف تجرءون أنتم على حرماننا من وضع تاريخ حاضرنا من دون أن يكون ملطخًا بالزيف؛ أريد أن أتحاور مع شباب مسيحيين وشباب من اليهود ويقترب مني بوذيون وبهائيون وهندوس وسيخ وكفار وملحدون.

فقال له أبي: عفوًا إن كنت مهووسًا بالشهرة وتريد أن تفتعل معي ما يجعل الإعلام يظهرك كبطل أو إن كنت تسجل لي الآن فاعلم أنه عندما تنطلق بسرعة رهيبة تجاه شيء ما دون أي جهد يُذكَر اعلم أنك في الطريق من الأعلى إلى الأسفل بفعل تأثير جاذبية الفشل؛ لأنني لم أمنعك من النقاش بهدوء في مكتبي وما منعك أحد أصلًا من الحوار.

اندفع الشاب:

وكيف يمكنني الحوار وأنت تضع على قلبي كل هذه التفاصيل الدموية للتاريخ؛ إنني أكره العالم الآن بسببك وبسبب أمثالك.

قالت ملك:

يا للهول؛ كيف جرؤ هذا الطالب على ذلك بغض النظر عن حقه في التعبير عن رأيه؟!؛ لاسيما وأن أبيك الدكتور عبد الرحمن جابر معروف بصرامته وله هيبة شامخة؛ ومَن منا كان يجرؤ أصلًا على المرور من بوابة الجامعة أثناء دخول سيارته؟!.

قالت ساندي: نعم؛ يبدو أن الشاب كان مختنقًا أو مكتئبًا أو ربما كان مريضًا بمرض نفسي، الله أعلم.

قالت ملك:

ذلك الشاب أظنه بذلك كان يهدم تاريخ مئات الكتب التي ألّفها أبوك لضرورة الفصل ووضع مساحات آمنة في الاحتكاك بين الأديان والحضارات؛ ثم ماذا حدث بعد ذلك؟.

أجابت ساندي:

سقط أبي وراح في نوبة إغماء وطلبوا له الإسعاف؛ وبعد أن هدأت حالته في المستشفى على الفور حضر ذلك الطالب وتقدم لأبي بالاعتذار لكن أبي احتضنه وصار يبكي بشدة؛ لكن الصدمة أن الطالب كان مصرًا على إكمال وجهة نظره وقال لأبي» نحن نمضي عكس اتجاه أنفسنا حتى أمست المسافة بيننا وبيننا أكبر من خيال الكاذبين».

سكت أبي واعتقد أنه سيغادر ولكن الشاب اللعين تمادى وقال لأبي: «كيف يمكنك أن تمسك زجاجةً تجمَّد الماء بداخلها وتسأل كيف دخلَت كتلة الثلج من هذه الفتحة الصغيرة، لا أدري لماذا يتعجب الناس من تجمد الفكر في رأس جاهل بهذا الشكل الوحشي الغريب؛ إن الأفكار لم تدخل من عنقِ رأسه جملةً واحدةً وإنما حصوة حصوة أثناء نوم المجتمع، كدخول الماء من عنق زجاجة قبل أن يتجمد فيها الماء».

حاول أبي أن يلتقط أنفاسه وسط انقباض صدره أن يستدعي الأمن ليبعدوا عنه ذلك الشاب المريض نفسيًّا لكنه عبثًا عجز عن ذلك ثم قال للشاب:

كل شيء أيها اللعين مدوَّن بأكثر من رواية على لسان المؤرخين و...

فقاطعه الشاب قائلًا في حدَّة:

في كل عصر من عصور التاريخ يوجد واحد يشبهك؛ ولهذا عندما تبحث في التاريخ عن شيءٍ تؤمن به لتثبته؛ هذا لا يعني أنك تبحث عن الحقيقة وإنما تبحث عما بداخلك في صورة وثيقة قديمة.

انهار أبي جدًّا وصرخ حتى هرع الأمن؛ ثم طلب أن يغادر المستشفى رغم اعتراض الأطباء وعاد إلى البيت دون أن يخبرنا بشيء ثم دخل في الكابوس اللعين حتى استيقظ منه.

ثم سألتها ملك:

ماذا ستفعلين مع ذلك المغرم بك في الفرقة الرابعة؟

أجابت ساندي:

أظن أنني أحتاج لوجبة من السمك المشوي من مطعم حسني في المندرة

فسألتها ملك:

ثم ماذا؟

أجابت ساندي:

ثم بعد أن يعزمني على السمك أظن أنني سأحتاج إلى أن أحبس بشاي في ليبانيرو كافيه سيدي بشر.

سألتها ملك بهدوء وهي تتنهد:

هل استطاع ذلك الوسيم أن يدخل قلبك؟

أجابت ساندي وهي تضحك بسخرية:

بالطبع مستحيل!!

ولماذا تفعلين ذلك مع الشاب المسكين وتورطينه في كل هذه العزائم؟، أظنك تعلقينه بالوهم!!

قالت ساندي باندهاش:

هل تحرمين عليَّ ما تقولين أنه حلال لكِ؟!

بالنسبة لخالد صديقي أنا لم أجبره على شيء؛ كما أن أمي ليس لديها مانع

ضحكت ساندي وقالت:

وأمي ليس لديها مانع؛ أمي أصلًا سيدة عصرية جدًّا ومنفتحة على العالم وصديقها الذي كانت معه الأسبوع الماضي كان يحكي لها عن علاقاته السابقة وكان من بينها علاقته الأخيرة بأمك وقال إنه التقى بها مرة في ڤيلا كفر عبده الخاصة بكم.

قالت ملك في ألم:

برأيك أننا بذلك على خطأ فيما نفعل؟.

قالت ساندي وهي تضحك جدًّا:

في حياة كل امرأة يوم كانت بريئة رجلٌ كسرها؛ فلم تعد تملك إلا أن تجرح كل من يقترب منها؛ ثم هم يقومون بتزوير التاريخ ونحن نقوم بتزوير الجغرافيا؛ نحن نكذب وهم يكذبون؛ ستذهبين مع خالد غدًا لأي مطعم؟.

أجابت ملك:

أظن أن المعطم الوحيد الذي لم أدخله حتى الآن هو (جينجر) رغم أن سونيا صديقتنا تقول إنه رهيب.

سألتها ساندي:

أين هذا؟.

في الهيلتون جرين بلازا.

قالت ساندي:

إذًا سنلتقي هناك غدًا.

خافت ملك وقالت:

لكن لا تحاولي أن تكلميني أو تقولي لخالد أنني قلت لك إنه مجرد صديق؛ لا أريده أن أخسره.

ضحكت ساندي:

هل خالد مغرم بك يا ملك؟.

أجابت ملك بسرعة خاطفة:

في الحقيقة نعم.

سألتها ساندي:

كيف عرفت أنه مغرم؟.

أجابت ملك:

من حرارة حديثه.

سألتها ساندي في لهفة:

أولًا يجب تحويل صوتك لمباحث الآداب ثم قولي لي ما آخر كلماته الساخنة التي تعلقت بأذنيك؟.

أجابت ساندي:

قال لي» بإمكاني حين تأتي عيناك في عينيّ أن أجهز جيشًا أكون أنا في المحارب الوحيد وأهزم العالم.

ضحكت ساندي:

لا أدري لماذا كلما يتغزل هؤلاء الأوغاد بنا يحاربون العالم و...

قالت ملك حين سكتت ساندي: أفضل علاج لشخصية الرجل (النسوانجي) كي يعود بشخصية (فضيلة الشيخ) هو أن يعود الزمن ويتزوج حبيبته التي حرموه منها؛ أليس كذلك يا ساندي؟.

أحست ملك بشرود ساندي فقالت لها:

آلو؛ ما بكِ أين ذهب عقلك، أتحبين أن آتي إليكِ؛ المسافة بين بيتنا في سان ستيفانو وبيتكم في رشدي ليست بعيدة؛ وخدمة أوتوبيسات سويفل رائعة توصلني في دقائق.

لا يا ملك؛ لا تشغلي بالك؛ ليس الآن.

لا يا ساندي أنا أعرف هذه التنهيدة؛ أعرف أن أمك دائمًا مكتئبة؛ وهذا أمر يضايق أبيك؛ لكن هل ثمة ما يحزنك يا صديقتي غير هذا؟.

نعم؛ ولكن الموضوع خطير لدرجة لا تتخيليها.

أرى أنني يجب أن أنصت لكِ لكن هذا لا يجعلك تقولين شيئًا إلا إذا شعرتِ بأنك تثقين بي وأن الكلام سيزيح ما في نفسك من حزن.

يا ملك أرجوكِ!!.

لماذا كل هذا البكاء يا ساندي؛ لا، أقسم عليك أن تتكلمي يا صديقتي؛ بالقطع هناك حل لكل عقدة.

شهقَت ساندي عدة شهقات متتالية حتى هدأَت ثم قالت:

بالأمس كان أبي في الجامعة كعادته كل يوم ثلاثاء لا يعود منذ خروجه في الصباح إلا في التاسعة مساءً، قلت لأمي سأنزل لأشتري حقيبة من شارع صفية زغلول بمحطة الرمل؛ ولكنني في الحقيقة كنت أريد النزول لأشتري لها هدية؛ لأن هذا اليوم كان يوافق عيد ميلادها؛ وكنا نحتفل به كل عام في السهرة في نادي الجامعة؛ لكنني بالاتفاق مع أبي قررنا أن نفاجئها لنحتفل في ڤيلا كفر عبده في العاشرة صباحًا وقد دعونا سرًّا كل صديقات أمي المقربات.

قالت ملك:

ثم ماذا؟، حتى الآن لا أجد مشكلة غير الموعد الغريب للحفل.

استأنفت ساندي تحكي:

ارتدى أبي ملابسه ونزل من بيتنا في رشدي ككل يوم على أنه ذاهب إلى العمل وقال لأمي:

اذهبي إلى ڤيلا كفر عبده الآن وقومي بتنفيض الفَرش وافتحي النوافذ للتهوية لأنني سوف أذهب هناك غدًا.

ولكنه بالطبع كما قلت لك يا ملك لم يذهب إلى العمل وإنما أحضر التورتة وكان حريصًا على شراء سكين كبير ثم ذهب إلى الڤيلا الخاصة بنا في كفر عبده وفتح باب الڤيلا بهدوء شديد حتى يفاجئ أمي، وأشار بكل طفولية وبراءة إلى حشد المدعوات اللاتي حضرن في الموعد بالانتظار على الباب.

ثم ماذا يا ساندي؟.

فتح أبي الباب الرئيسي ثم فوجئ بشاب عار تمامًا يجري وراء أمي وهي عارية أيضًا كما ولدتْها أمها وضحكتَها تزلزل الڤيلا؛ والمصيبة أن أصوات القُبل كانت أكثر صخبًا من صوت دخولنا؛ فسمع أبي آخر حديث دار بينهما؛ وعشيقها يقول لها:

لا أدري لماذا أصبحت خائفًا.

فقالت أمي وهي ملتصقة به:

ذات عناق حار، حين يكون لقاؤك بها شديد الخطورة، لا تطلب اللقاء مرة أخرى في زمان قريب أو غير قريب.

فسألها:

لماذا؟.

أجابت:

لأن الزمن بمرور الوقت يقضي على مرارة خوفها ويُبقى على حلاوة العناق.

فعاد يسألها:

وكيف سنلتقي إن لم أذهب إليها؟!.

فأجابت:

هي ستأتي إليك.

وكان سؤاله الأخير:

معذرة، وما الذي يجعلها تأتي وسط هذا الخوف؟.

قالت:

حلاوة العناق.

يا للهول يا ساندي؛ كان هذا موعدًا لأمك مع عشيق لها؟!!.

استمرت ساندي تحكي لملك:

كان جميع صديقات أمي على الباب يفتحن هواتفهن ليصورن ملامح أمي لحظة فرحتها بمفاجأة أبي الشديدة الرومانسية.

شاهدت أمي المنظر بينما لم ينتبه الشاب وكان لايزال يتحدث وهو مندهش من ثبات حبتي عينيها وهو يقول:

تنظرين إليَّ كأن أحدهم سرق من عصر الجاهلية شيء ووضعه في عينيك كقاطع طريقٍ رفع سيفه أمام قافلةٍ في عرض الصحاري وهدد باغتصاب النساء والرجال والخيول التي معهم والبغال.

قالت ملك:

لا بد أن أباك كان يعرف مواعيدها؛ ها ثم ماذا؟!.

أصيب الشاب العاري بالفزع بعد أن التفتَ وحاول أن يهرب من الباب لولا أن أبي وقف أمامه وأجبره على الوقوف بجانبها وهما عاريين تمامًا تحت تهديد السكين التي كان قد اشتراها لتقطيع التورتة ثم دعا جميع النساء للدخول وهن يمسكن كاميرات هواتفهن وأنا معهن لم أكن أعرف هذا المخطط؛ أصيبت النساء بنوبة من الذهول والبعض توقف عن التصوير لكن البعض الآخر وجدها فرصة لتسجيل لحظة ممتعة.

احكي بسرعة يا ساندي!!!.

ثم جئتِ أنتِ في هذه اللحظة؛ لأنني كنت قد دعوتكِ للحفل؛ فرأيناه يبتسم بشكل جنوني ويدعوكِ للدخول قبل أن يغلق الباب.

نعم بالفعل؛ لقد دعاني للدخول؛ وما إن دخلْت حتى الآن لا أعلم ماذا حدث نهائيًّا غير أنني شعرت بشيء في رقبتي.

بالطبع لا يمكنك أن تتذكري لأنك كنت أول المذبوحين؛ وفوجئنا به يمسك بشعرك ويتدلى منه رأسك بينما جسدك يرقص على الأرض وسط بركة من دمائك المندفعة؛ ثم أغلق باب القيلا بالمفتاح ثم وضعه في جيبه وهو يضحك بجنون أشد.

ثم ماذا فعل مع ذلك الشاب العاري وأمك وكل هؤلاء المدعوات؟!.

قطع ستائر صالة الڤيلا ثم ألقاها على الشاب ليستر بها نفسه؛ فكانت خدعة كافية ليتعثر بالستائر كي ينقض عليه ويذبحه ويفصل رأسه عن جسده تمامًا كما فعل معكِ، ثم ظل يطارد أمي حتى أمسك بها وأعطاها رأس عشيقها بينما كان يجثو أبي أمامها على ركبتيه بسخرية كأنه يعطيها هدية رومانسية فقالت:

هذا ليس عدلًا.

فقال أبي:

نعم ليست العدالة بما تشاهدينه بأم عينيكِ؛ لأنك عمياء أمام حلاوة الروح لكنني سأثبت لك؛ لقد قمت بتسجل مكالمة بينك وبين أمك؛ سأجعلك تسمعين أهم جزء فيها «أنت ابنة أمك حقًّا؛ سمعتِ كلامي واخترتِ زوجًا ساذجًا طيبًا مشغولًا بعمله لا يلاحظ مواعدتك للرجال؛ أنت تشبهينني، وأشياؤنا حارة جدًّا لا يكفينا رجل أو اثنين»، «نعم يا أمي كنتِ تقولين: اختاري رجلًا مثل الشعوب العربية، كلما يكتشف خيانتك تشعلين له حريقًا؛ فينشغل بإطفاء الحريق وينسى كل شيء.

قام بتكتيفها على السرير ثم أخرج من أكياس الهدايا كيسًا فيه ثعبان ضخم ووضعها بجانبها ثم جلس يضحك ويقول:

«مات فيك بينما أنت لا تزالين حية؛ ذات مساء سيصادف حمامة؛ بينما سيرقد بجانبك على السرير ثعبان يشبهك».

ثم ذبحها بعد أن سمعت صوت المكالمة المسجلة ورأى في عينيها الاستسلام للحقيقة العارية وسط صراخ صديقاتها الهيستيري؛ ثم ظل يطاردهن واحدةً تلو الأخرى حتى انتهى منهن جميعًا.

ثم كيف ذبحك؟!.

لم يذبحني يا ملك.

كيف أمسيتِ من الأموات مثلنا؟!.

لقد أعدَّ لي محاكمة ووقف يتهمني ثم طلب مني الدفاع عني؛ فلما دافعْتُ عن نفسي وتوسّلْتُ إليه قدم لي كل الأدلة التي تثبت ضلوعي في ارتكاب الجريمة.

أية جريمة؟!.

أنني كنت أتستّر على أمي وأن أمي كانت تتستّر عليَّ؛ لقد كان هذا الحفل الذي أعدّه أشبه بدعوة إلى مذبحة؛ وكان قد وضع برنامجًا للتنصّت على هاتف أمي وعرف بموعدها مع الشاب الذي لم يكن أصلًا أول شاب تواعده بل كان آخرهم، وكان يعرف أيضًا حكاية كل واحدة دعاها للحفل من صديقاتها من ثرثرتهن معها على الهواتف والرسائل الالكترونية؛ كما كان قد سجّل لي كل مرة كنت فيها على موعد مع سرير رجل في ڤيلا كفر عبده ثم اكتشفْتُ مفاجأة.

ما هي؟!.

لقد كان يقوم بتصويري أنا وأمي الفترة الأخيرة؛ وفي كل مرة كنا ننام فيها مع رجال في هذه الڤيلا؛ كان قد زرع الكاميرات الدقيقة في كل مكان في الڤيلا ولم نكن نعلم؛ كان يصر على استئجارها بعد وفاة جدي لكننا رفضْنا بشدة ولم نكن نعلم أن وجودنا معًا كان يحمينا منا.

ثم ماذا يا ساندي؟.

ثم كان قد أحكم غلق جميع الأبواب ليبقى يتحكم بسهولة فيما ترصده الكاميرات؛ كما أنه كان قد حاصر السرير الوحيد في الدور بعشرات الكاميرات التي تصور وقت اللقاءات الجنسية.

ثم ماذا فعل؟!.

جعلني أشاهد معظم اللقاءات المصورة؛ حكم عليّ بالإعدام شنقًا؛ وكانت المشنقة جاهزة!!؛ كان قد أعد الليلة للاحتفال!!.

وشنقكِ؟!!.

صدقيني لم أقاوم؛ لكنه سألني إن كنت أريد أن أقول شيئًا؛ فقلت له «كنتَ مشغولًا بالتاريخ جدًّا لدرجة أنك سافرت إلى الماضي لترى الحقيقة؛ وثمة أوغاد يخفونها في كل عصر؛ وحين عدتَ من السفر وجدتَ زمنًا غير زمنك؛ فكان عليك أن تحسب المسافة؛ كي لا تندهش حد الصدمة فيما فعلَتْه أمي؛ نحن يا أبي في زمنٍ يقال فيه إن في مدينة كذا إنسان لا يمارس الجنس في الحرام؛ فيندهش الناس.

ثم ماذا فعل؟.

كان أصلًا في حالة من الجنون المبرمج وكان قد أعد كل شيء؛ كنت أدافع عن نفسي لكنه كان أشبه بالآلة التي أعطاها الأوامر مسبقًا؛ حتى أنني شعرت أن كل شيء محسوب بالثانية الواحدة؛ حتى المدعوات جئن في توقيت واحد لأنه كان قد استأجر عدة سيارات أوبر لتحضرهن في الموعد.

أوف، هذا هو سبب أنك أرسلتِ لي سيارة أوبر أمام بيتي في هذا اليوم!!؛ المهم أكملي ها.

دفننا جميعًا في حفرة واحدة في الدور الأرضي للڤيلا وردم علينا.

لكنك لم تحكي لي كيف شنقك!!.

قلت لك لم يشنقني وإنما ظل يشنق حتى خارت قوتي ولم تخرج روحي؛ كأنه يقوم بتخديري؛ وجرجرني مع الذبائح في نفس المقبرة وأخذ يردم عليَّ معهم.

كان يقصد أن يدفنك وأنت على قيد الحياة يا ساندي يا للهول وكأنه عاد من عصور الجاهلية فعلًا.

لقد قلت له اقتلني أرجوك لا تتركني أموت هكذا مثل وأد البنات قبل الإسلام؛ ضحك وقال وكأنه القاضي العادل: «لقد فعلتِ أنت وأمك أقذر مما كانت تفعله الأنثى في الجاهلية؛ ولهذا فعقابك يخضع لقوانين الجاهلية طبقًا لعقوبة الزنا قبل الشريعة، المرأة عقوبتها الذبح والبنت عقوبتها الوأد.

ثم ماذا؟

ثم قلت: الحب..

فقاطعني بصراخ كأنه صراخ سبعين ألف شيطان من الجن قائلًا:

يقولون إن الجملة لا تكون مفيدة إذا ذكرنا المبتدأ فقط؛ هذا صحيح لكنهم لم يذكروا لنا حجم الأضرار التي يأتي بها الخبر حين يجب أن يتوقف عند المبتدأ الكلام.

ثم ماذا؟.

ثم ردم عليّ للأبد.

أعاد البلاط الذي كان قد نزعه كما هو في أرضية البدروم ليخفي آخر أثر للمقبرة الجماعية.

وبعد انتهاء آخر مراسم هذا الحفل الدموي أغلق باب القيلا.

ضحكت ملك ضحكة مرعبة ثم سألت ساندي:

بم تنصحين اليوم مَن يتقدم لها عريس بعد كل هذا؟.

أجابت:

انزلي مسرعةً إلى السوق في صباح اليوم الذي سيعقد فيه قرانك ثم اشتري مجموعة من أكياس البلاستك والسواطير وقومي بإخفائهم تمامًا يوم نقل العفش في أي مكان لا تصل إليه عيون زوجك ولا تسأليني عن السبب.

ثم ماذا تقولين لكل خائنة قبل أن تنال نفس مصيرك؟.

قالت: غادِري الأماكن التي ارتفع فيها الإيقاع ولم يُجبر خصركِ تلقائيًّا على الاهتزاز وأظن أنك تعرفين أين يمكنك الإقامة.

ماذا لو لم يكن لي مكان آوي إليه؟.

أن تمشي في الشوارع مشرَّدةً تشهقين الاكسجين خيرٌ لك من السكن في قبرٍ وأنتِ لا تزالين على قيد الحياة.

بالمناسبة يا صاصا؛ لماذا قص الشعر في الكابوس؟!.

في الكابوس تمثل ساندي الأمة العربية؛ وضفائرها تمثل الغباء والتخلف الذي ينمو تلقائيًّا؛ بالفعل نحن نناول العدو ساطورًا جاهزًا ليقتلنا بل ونقوم بتنظيف مسرح الجريمة حتى لا يتورط.

قالت ملك:

خلّعَت لها كل ملابسها تمامًا ثم قالت: اختاري يا ابنتي ما بين الفستان والاكسسوارات؛ العالم كله اختار الفستان؛ وحدهم العرب اختاروا الاكسسوارات.

خرج عبد الرحمن أستاذ ورئيس قسم التاريخ هائمًا على وجهه تائهًا في شوارع الإسكندرية كالدرويش حافيًا يلتقط طعامه كالكلاب الضالّة من القمامة؛ فقدان تلقائي للذاكرة؛ لا يعرف هويته أحد بعد أن غطّى شعره المبروم وجهَه الذي توارى أصلًا تحت شعر ذقنه.

الڤيلا مهجورة والقبر العميق بداخلها لا يزال يضم جميع المدعوين.

تم تسجيل بلاغات أهالي جميع من كانوا في الحفل على أنهم «مفقودون».

انتشرت الملصقات الورقية على جدران المباني في جدران الإسكندرية تقريبًا «مفقودون» لكن لا أثر؛ الجريمة كانت كاملة لا أثر لأي بصمات أو رائحة.

هو ذلك العجوز القذر الذي ينام عند نفق الشاطبي ويقوم كل صباح حين تطلع الشمس يترافع كأنه في محكمة يصرخ وهو يولّي وجهه شطر البحر وينادي:

«ليست العدالة بما تراه بأم عينيك في وضحِ النهار وإنما بما تستطيع أن تثبته للعميان».

.. الصدمة الأخيرة.

استيقظ المؤلف في منتصف الليل من النوم مصابًا بالفزع الشديد من ذلك الكابوس العنيف؛ فتناول كوب ماءٍ وقام وتوضّأ وصلى ركعتين وظل يستغفر الله حتى هدأ تمامًا وبدأ يستوعب أن كل هذا الذي حدث كان مجرد أضغاث أحلام ثم عاد إلى النوم؛ لكنه فوجئ بصوت رهيب يقول له: اكتب، اكتب، اكتب، ... حتى انتفض المؤلف مفزوعًا مرة أخرى.

وظل ذلك الصوت يتكرر بشدة مع كل مرة يغفو فيها؛ حتى يستيقظ بفزع أشد وهلاوس غريبة.

هجر المؤلف بيته في الإسكندرية فجأةً بعد أن بدأ الجميع يشكِّك في سلامة عقله؛ ذهب متخفيًا إلى منزل مهجور في قريته القديمة بمحافظة البحيرة في منتصف إحدى الليالي وقرر مرغمًا أن يسمع صوت الحلم وظل يكتب بسرعة جنونية دون أن يملك حق النوم مدة سبع وعشرين ساعة حتى انتهى من كتابة آخر حرف في هذه الرواية ثم ذهب في سُبات عميق.

ڤيلا كفر عبده

سميح فتحي